مطبوعات كتابي



الطريق إلى بئر سبع

للروائية الإنجليزية المعاصرة "إيثيل مانين"

أروع قصة طويلة عن مآسى العدوان الإسرائيلى الغادر على عرب فلسطين

الجزء الثاني والأخير

إيثيل مانين

الطريق إلى بئر سبع

الجزء الثانى



THE ROAD TO BEERSHEBA

BY

ETHEL MANNIN

الثمن : ١٠ قروش

الناشر: الدار القومية للطباعة والنشر

مطبوعات

كتابي

الترجمة الكاملة لشوامخ الكتب العالمية

رئيس التحرير : حلمى مراد

الكتاب الثالث والسبعون

الطريق إلى بئر سبع

ترجمة : الدكتور نظمى لوقا

الادارة : عمارة الجندول — ١٤ شارع ٢٦ يوليو — القاهرة

تليفون : ٥٩٥٥٦ ، ٤٦٤٧٥

مطابع منكور واولاده

مجموعة كتابى

(الكتاب الشهرى لتلخيص الكتب العالمية)

صدر منها ٩٦ كتابا ، يضاف اليها كتاب جديد فى أول كل شهر . (وتطلب قائمة بها من الادارة) .

مطبوعات كتابى

(الترجمة الكاملة الأمينة لشوامخ الكتب العالمية)

صدر منها ٧٣ كتابا ، ومجلدان خارج السلسلة يحتويان على الترجمة الكاملة لقصة باسترناك (دكتور جيفاجو) ، وتطلب قائمة بها من الادارة .

الاشتراكات

عن ١٢ عددا من كتابى أو ١٢ عددا من مطبوعات كتابى : فى ج.ع.م والسودان والمملكة السعودية والأردن ولبنان وليبيا والعراق ١٢٠ قرشا سنويا خالصة أجر البريد المسجل ، وما عداها من البلاد العربية الأخرى والبلاد الأجنبية ١٦٠ قرشا سنويا خالصة اجر البريد المسجل .

(ومن يرغب فى ارسال الأعداد بالبريد « الجوى » يدفع فرق الرسوم) . وترسل القيمة من مصر باذن بريد عادى ، ومن السودان بحوالة بريدية ، ومن البلاد الأخرى بشيك على احد بنوك القاهرة او تحويلات مصرفية ، او كوبونات بريد دولية فئة ٤٠ مليما قابلة للصرف فى مصر ، (وسعر صرف الكوبون ٣٧ مليما) .

الكتاب الثانى

المنفى

- ١ -

توجه « روبرت ملبى » الى مطار لندن لاستقبال ابنتـه « ماريان » وحفيده « أنطون » ٠٠ وكان قـد غادر - منذ أحد عشر عاما - هو وزوجته « الزبيث » البلاد التى كانت تسمى (فلسطين) من مطار كهذا المطار فى طريقهمـا الى الوطن ، أو ما كان الناس يسمونه الوطن ، أما هو والزبيث فكانا يعتقدان أنهما انما يغادران وطنهمـا الحقيقى ، لأن (يافا) هى وطنهما وليست لندن !٠٠ يافا أوفلسطين بأسرها٠ ولكم ذرفت الزبيث من الدمع وهى تلوح بيدهـا من نافذة الطائرة فى ذلك اليوم ، مع أن ابنتها ماريان وطفلها كانا قد غابا عن الأنظار منـذ وقت طويل ٠٠ وراحت تنهنه متمتمة لنفسها والطائرة تشق طريقها صاعدة :

- ترى متى نراهما مرة أخرى يارب ؟

وها قد جاء جواب السماء ٠ فهذا المسـاء القـارس من أمسيات نوفمبر سنة ١٩٤٩ - بعـد احد عشر عاما - هو الموعد الذى حدده القدر لذلك اللقاء المنشود ٠ ومع ذلك لم تأت الزبيث الى المطار ، وجاء روبرت بمفرده ، لأن زوجتـه مشغولة باحدى حفلات تلك الجمعيات العديدة - بين خيرية

ونسوية ـ التى تسهم فى نشاطها وتكاد تأكل حياتها أكلا ٠ ولم يكن فى وسعها الاعتذار وهى من خطباء الحفل !

لقد قيل لروبرت ان صديقه « بطرس منصور » مات بعلة فى القلب ، لأنهم فى علم الطب لايعرفون شيئا اسمه « تحطم القلب » على أثر صدمة مزلزلة ٠ ولكن روبرت ملبى يعرف عن يقين أن فلسطينيين كثيرين عدا بطرس منصور لابد أنهم ماتوا بتلك العلة ذاتها بعد « النكبة » !

ان هذه النكبة هى التى تأكل اليوم قلب ماريان أيضا ولا شك ٠ ماريان التى غدت وحيدة فى الدنيا ٠ أجل ان لديها ابنها ، ولكن المرأة بحاجة قطعا الى « شىء ما » أكثر من الابن لمواجهة الحياة ٠ ولكم كان هذا الابن فخورا بأبيه فى طفولته ٠ وأن جده لأمه ليرجو اليوم ان يجد فيه حفيده مدعاة للفخر أو الثقة على الأقل ٠ أن يجد فيه رجلا متزنا ذا همة ، يعتز كثيرا بأنه كان فيما مضى صديقا حميما لأبيه الراحل ٠

لقد كتبت ماريان الى أبيها قائلة : « ان الصبى يشعر بأنه ينتمى الى آل منصور أكثر من انتمائه الى آل ملبى ٠ وذلك بشير خير على كل حال ٠ **فلابد للفتى أن يشعر بعروبته ٠ بأنه عربى ٠ وبأنه فلسطينى ٠ وأنه من سلالة شعب مظلوم مضطهد ٠٠ شعب أبيه المنكود ٠ »**

وفجأة أبصر بهما « روبرت ملبى » من باب بهو الجمرك المفتوح واقفين الى جوار حاجز مثقل بالحقائب ، وماريان بدون قبعة كعادتها ، وقوامها رشيق أنيق كالعهد به ، والى جانبها فتى نحيل يضارعها فى الطول : **فتى وسيم ذو بشرة زيتونية ٠٠ فتى عربى !**

وفرح قلبه بمرأى حفيده ، وتطلعت ماريان الى أعلى ورأته ، فلوحت له بيدها ، وقالت للفتى شيئا ما ، فنظر حيث أشارت

له أمه ، ثم لم يلبث بعد لحظة أن ابتسم على استحياء ولوح بيده لجده .

واشتد تزاحم الناس وتدافعهم بعد ذلك فابتلعهما ذلك المد، وانقضت فترة طويلة قبل أن يبرزا الى البهو الرئيسى للمطار . وخيل الى ماريان وهى تملأ عينيها من أبيها أنه لم يزل على نحافته وانتصاب قامته المعهودين فى أبناء الانجليز ، ولم يطرأ عليه تغير يذكر سوى اشتعال رأسه شيبا وزحف السن الى محياه . ولكنها قالت له فى حماسة وهى تعانقه فى غمرة السعادة باللقاء :

– أنت كما أنت .. لم تتغير قيد أنملة !

وضحك ، وان لم تخدعه كلماتها . فهى أيضا قد تغيرت . ولم يفته أدراك ذلك رغم نحافتها ورشاقتها. فها هو الشيب قد دب الى شعرها الداكن ، وهذه خطوط قد ارتسمت هنا وهناك على محياها ، فهى لم تعد تلك المرأة الفينانة فى باكورة الثلاثين ، بل امرأة فى أواسط الأربعين . ولا عجب ! فاحدى عشرة سنة ليست بالفترة القصيرة في عمر امرأة .. ولا سيما اذا كانت تلك المرأة قد عانت ألوان الويل والعذاب .

وابتسم روبرت ملبى لأنطون ، وخاطبه بالعربية قائلا :

– اذن فأنت ابن صديقى بطرس منصور !

فابتسم الفتى بارتباك ، وقال باستحياء :

– انى أعرف الانجليزية أيضا . وفى وسعك أن تكلمنى بها .

– أعرف هذا . ولكنى أحب أن نتكلم العربية بين الحين والحين ، فانى أحب وقع حروفها على أذنى . ولى أمد طويل لم أسمع أحدا يتحدث بها ...

وسألت ماريان أباها أين أمها ، فقال لها انها لم تستطع التحلل من ارتباطها باحدى لجانها وجمعياتها الكثيرة ، وأنها

ستكون فى البيت عندما يصلون الى هناك • وسألهما بعد ذلك عن رحلتهما ، فقالت ماريان : « لقد كان الجو دافئا جدا فى أريحا عندما غادرناها • وكان الطيران مملا » •

– وهل راقت الرحلة أنطون ؟

ونظر كلاهما صوب أنطون الذى قال : « كانت لا بأس بها » ، فقالت ماريان وهى تحاول عبثا أن تخفى تقطيبها بابتسامها :

– لم يكن راغبا فى المجىء •

فقال ملبى : « لست ألومه على هذا » ، ثم وضع الرجل يده برفق على كتف الصبى وقال :

– لا تكترث كثيرا لهذا النفى ، فانه لن يطول الا أعواما معدودة • أما أنا فالنفى بالنسبة لى سيدوم الى الأبد !

فقالت ماريان بلهجة الشكوى :

– انه لا يرى سببا يدعو لمجيئه الى هنا على الاطلاق •

ولم يحاول أنطون أن يدلى بأى تعليق • وعندئذ قال ملبى أنه استأجر سيارة تحملهم الى البيت • وخرج ثلاثتهم من مبنى المطار ووقفوا على الرصيف فى انتظار حضور سيارتهم من الموقف • وكانت الريح باردة ومحملة بالمطر ، فارتجف أنطون كارتجافه عندما برز من باب الطائرة لأول وهلة ففاجأه الجو البارد بعد دفء الطائرة •

أجل ، كان الجو يتسم بالبرودة فى (رام الله) شتاء ، ولكن ليس الى هذا الحد • فما أشبه البرد هنا فى لندن بضرب خفى من الرطوبة ، يتسرب تحت سطح الجلد ويتغلغل حتى العظام • ومن العجيب أن الجو فى صباح هذا اليوم نفسه كان حارا فى أريحا • أما فى عمان عند الظهر فكان شديد الدفء •

واستقلوا سيارتهم أخيرا ، وراح أنطون يتطلع من النافذة

الى امتداد الحظائر الواسعة القبيحة الشكل فى أرجاء المطار ، ثم الى المصانع السابحة فى الأضـــواء على طول الطريق الى الضواحى التى تحفل بالفيلات الصغيرة التى تتراجع كل منها عن الطريق العام وراء حاجز صغير من الخضرة !

وكان جده الانجليزى ينظر اليه ويقول فى نفسه مسرورا :

– ياله من فتى أسمر ··· تلك السمرة العربية الفاتنة !

وشاعت البهجة فى محيا الصبى بعض الشىء عندما وقع نظره على أول لمحة من مياه نهر التيمز ، وهم يجتازون احدى قناطره ، وبدا له النهر اللندنى واسعا جدا بالقياس الى نهر الأردن · وازداد تهلل وجهه عندما تجلت أمام ناظريه الغابات والمروج فى ضوء مقدم السيارة بضاحيـــة (ومبلدن) · **فها هنا فراغ ووحشة وخضرة ، وهى أشياء يعرفها جيـــدا ويأنس اليها ·**

وسمع صوت جده يقول له :

– لولا الظلام لاستطعت أن ترى عند حافة هـذا المتنزه العام بناء المدرسة التى ستدخلها ·

وأرسل أنطون بصره يحاول أن يخترق الظلام فى الاتجاه الذى أومأ اليه جده ، واردف ملبى قائلا : « وانها لمدرســـة جيدة · وستحبها كثيرا » ·

وصمت أنطون برهة ثم سأل جده :

– أهى المدرسة التى كان أبى يريد أن يلحقنى بها ؟

– نعم · وقد طلب الى منذ سنوات أن أسجل اسمك فيها كى أحجز لك مكانا · وكان مسرورا جدا لذهابك يوما ما الى المدرسة التى درست فيها أنا ··

وأسرعت ماريان تقول : « وأنا أيضـا راقتنى الفكـــرة كثيرا » ·

واستطرد ملبى :

ـ وهى مدرسة نهارية . وسيكون فى مقدورك أن تعيش فى البيت معنا . فها نحن أولاء . وهذا الباب الأزرق باب بيتنـا .

ودهش أنطون لصغر حجم بيت جديه . فهو لا يكاد يزيد شيئا على حجم الأكواخ التى كان يقيم بها الفلاحون فى ضيعة والده باللد ! ورأى على مدخل البيت من الخارج مصباحا معلقا وظلة يعرش فوقها.نوع من الكرم . واستطاعت عينه أن تميز فى ظلام الحديقة الصغيرة أشجار الورد .

أما أمه فصاحت بحبور وهى تترجل من السيارة :

ـ ياله من بيت صغير عزيز ! لا عجب أن تفتننـا به أنت وأمى ! وهو يطل أيضا على المتنزه العام مباشرة . فكأنكمـا فعلا وسط الريف ! وهاهى ماما !

وأقبلت سيدة أنيقة شهباء الشعر تخترق الممر بخطـوات سريعة ، وتكرر العناق والتقبيل والترحيب على نحو ما حدث فى المطار ، وقبلت الجدة أنطون وضمته الى صدرهـا ضما شديدا ، وأخذت تصيح به :

ـ لكم غدوت فارع الطول ، ولم تكن سوى طفل يدرج على الأرض عندما رأيتك فى آخر مرة !

وظلت تحملق فيه بانتشاء أورثه ارتباكا . وذكره منظرها بمنظر طائر يعرفه ، فعيناهـا ثاقبتـان كعينى الطـائر وحركاتها سريعة كحركات الطيور ، وفيها شئ يذكره بالمنقار وحركته . وعقدت أخيرا ذراعها بذراعه ودخلا البيت ، فداخله احساس بعدم الارتياح ، لأنه شعر بها وكأنها ـ على هـذه الوتيرة ـ قد وضعت يدها واستولت عليه !

والواقع أن وجود حفيدها تحت سقفها كان يعنى الشئ الكثير فى نظر الزبيث ملبى . وكانت تعتقد فى قرارة نفسها أن ماريان لو كانت غلاما لتغير نهج حياتها كثيرا . ولقد كان

وليدها الأول غلاما ، بيد أنه مات فى باكورة طفولته . والطفل الذى تمنت أن يملأ الفراغ الذى خلفه الغلام الراحل جاء أنثى ... وصارت الأنثى - ماريان - ابنة أبيها . ولم يكن فى ذلك ضير ، لأن روبرت ملبى رجل متزن ، ولكنه جعل حياتها خاوية . **وما أكثر ما منيت به من خيبة الأمل . ولكم حاولت أن تتحمل تلك الصدمات بقلب مؤمن ، ولكن ضعفها كان يغلب عليها ، ويرين عليها من ذلك ألم وشعور بالضياع والغبن .**

لقد خيل اليها فى وقت ما أنها أقدمت على حياة كلها رومانسية ومغامرة ، حين تزوجت من روبرت ملبى ومضت معه الى الأراضى المقدسة كى تكون عونا له فى ادارة مدرسة للغلمان العرب المكفوفين ... ولقد أحبت كثيرا البيت الذى سكناه فى يافا ، ولكنها لم تحب يافا نفسها . وكانت ذروة أملها فى الحياة بفلسطين أن تنتقل يوما ما الى القدس .. **وكان شعورها الدينى المتحمس يجعلها تنظر بوله وهيام الى كل شجرة زيتون تراها على جانب التل ، على أمل أن تكون عين السيد المسيح قد وقعت على تلك الشجرة ذاتها فى مدة حياته هناك** . ولكن روبرت ملبى كان يهدم لها آمالها تلك بقوله أن ذلك غير مرجح ، لأن أشجار الزيتون لا تعمر كل تلك القرون العشرين !

وكانت تقول فى نفسها أن روبرت ملبى رقيق الحاشية جدا ، طيب القلب بمعنى الكلمة ، ومع هذا ففى مقدوره أحيانا أن يكون قاسيا جارحا . بل انه كان فى الواقع أول صدمة وأول خيبة أمل منيت بها . فهو ابن رجل من رجال الدين ، وفى أسرته كثير من رجال الارساليات المنتشرين فى العالم ، ولكنه لم يكن صادق الايمان بالمسيحية . لأن اطلاعه العلمى جعله ينظر نظرة شك الى كثير من المواقع التى يسميها الناس

أماكن مقدسة فى فلسطين ، وقد بلغ به شكه أنه نعت الكثير من تلك المعتقدات بأنها « هراء » . أما هى فكانت على العكس منه ، تواقة للانتقال الى القدس أو بيت لحم ، حيث المزارات التى يقدسها المسيحيون المخلصون . **أما روبرت ، فكان يحب (يافا) ويفضلها على كل مدينة أخرى فى فلسطين ، لا لشىء الا لأنها مدينة اسلامية خالصة . أو على حد تعبيره هو لأنها مدينة عربية خالصة .**

وانها لتعتقد فى قرارة نفسها أنه لولا اقامتهما فى مدينة يافا لما انغمس روبرت على هذا النحو فى الحركة الوطنيـة العربيـة بحماسـة بالغة سـافرة ، ولما ترتب على ذلك استدعاؤهما الى لنـدن . وكذلك لولا اقامتهما فى يافا لما أتيح لابنتهما الوحيدة أن تلتقى ببطرس منصور !

وليس معنى هذا أن الزبيث كانت تضمر شعورا عدائيـا نحو بطرس منصور ، فهو فى نظرها رجل ظريف ومسيحى لا غبار عليه سوى أنه أرثوذكسى ، فى حين أن آل ملبى من غلاة الانجليكان . ثم أن بطرس منصور فى سن والد ماريان . وأنه لمن المحرج بلاشك أن يكون زوج البنت فى سن حماه ! **وقد أصر هذا الزوج العربى المسيحى على أن يتم عقد القران فى الكنيسة الأرثوذكسية . وكذلك تمت معمودية أنطـون فى تلك الكنيسة أيضا ، وهذه كلها صدمات أورثت الزبيث خيبة الأمل .**

وجاءت بعد ذلك خيبة أمل لا شك فيها أيضا ، وهى العودة الاضطراريه ، والاقامة فى انجلترا مرة أخرى ، ومعاناة برودة الشتاء القاسية هناك . هذا بالاضافة الى معركة بريطانيـا المحطمة للأعصاب ، ليل نهار . وازداد شعور الزبيث بخيبة الأمل حينما رفض روبرت أن يصحبها الى الكنيسة يوم الأحد ،

كما رفض فى أيام الأسبوع أن يبدى اهتماما بنشاطها الخيرى والاجتماعى .

ولم يكن من عادة الزبيث أن تشكو أو تنتقد ، لأنها ربيت على تقبل الأمر الواقع فى صبر وجلد . **ثم أن روبرت رجل طيب في أعماق سريرته ، وابنتهما الوحيدة ماريان شبت ذكية كأبيها وطيبة القلب مثله . وكانت مثله أيضا فى محبتها للعرب** . ولئن كانت أقرب بعواطفها الى أبيها منها الى أمها فتلك هى سنة الطبيعة التى لا حيلة فيها . كما أن ارادة الله هى التى شاءت أن تحرم الزبيث من الولد الذى كان حريا أن يتعلق قلبه بها . وليس لامرأة مؤمنة مثلها أن تناقش ارادة الله . ولذا حاولت على الدوام ألا تسمح للمرارة بالتسرب الى أغوار سريرتها ، وأن تجعل حياتها نافعة لنفسها وللناس ، وأن تنظر دائما بعين الرضى والشكر الى النعم الكثيرة التى أفاضها الله عليها .

ولم تتمالك الزبيث نفسها - عندما وصلت أنباء وفاة بطرس منصور فجأة - من الشعور شعورا مختلطا مزدوجا متناقضا : بالرثاء لماريان ، وبالأمل المشبوب فى أن تسعد هى أخيرا بعودة وحيدتها الى انجلترا مع الغلام ، فيتسنى لها أن تعرف حفيدها وأن تجد فيه بديلا من ابنها الذى حرمت منه قبل الأوان .

وأبرق روبرت ثم كتب تفصيلا بالبريد يستحث ابنته على الحضور الى انجلترا . وردت عليه ماريان بأن ذلك هو رأيها أيضا ، وأنها ستأتى ومعها أنطون بمجرد الفراغ من اجراءات نقل ملكية ضيعة أريحا الى خليل داود ، وتسوية جميع التفصيلات المترتبة على حصر التركة . ولم تكن الزبيث تعلق أملا كبيرا على جو التقارب الحميم بينها وبين ماريان . بل كانت تتوقع أن يكون التقاؤهما أشبه بالتقاء الغرباء .

أما تعويلها كله فكان على ذلك الحفيد الصغير أنطون ، وعلى أن تنشأ بينها وبينه صلة مودة تتجاوز كل ما كان بينهـــا وبين ابنتها . وانها لترى فيما حولهـا من البيوت أطفـــالا كثيرين يرتبطون بأجدادهم أكثر من ارتباطهم بآبائهم وأمهاتهم . ولذا كان شوق الزبيث الى حفيدهـــا العربى أشبه بحنين الأحشاء . وهى لاتجد غضاضة فى أن يكون حفيدها عربيا . وان كانت تؤمل فى قرارة نفسها أن يأتى اليوم الذى تختفى فيه تلك اللمحات العربية لتحل محلها لمحـــات مكتسبة من الاقامة المستمرة فى جو انجلترا . سيما بعد أن ينخرط أنطون فى سلك المدرسة العامة . وسيساعده على ذلك بلا شك ما ورثه عن أمه من عينين زرقاوين . **وحاولت أن تغالط نفسها فى لون بشرته الزيتونى ، وامتلاء شفتيه ، وقوة أنفه ، ذلك الأنف الذى ورثه عن آل منصور .**

انه الحب من أول نظرة . فقد كان تأثير الغلام على جدته صاعقا ، بوسامته وقامته . وانه لحفيد تفخر به أى جدة . وقد صار غاية أملها الآن أن يشعر الغلام لها بشىء ولو قليل من المعزة والمودة ، فيعوضها هذا القليل عن كثير جدا ممـــا تشعر أنها حرمت منه !

* * *

أما ماريان فقد وجدت ــ بعد تلك الغيبة الطويلة جدا عن انجلترا ــ أن من العسير عليها أن تتأقلم بالحياة الانجليزية والمناخ الانجليزى ، فجعلت ترتجف ارتجافا غير قليل فى أيام الخريف الرطبة ، مع أن والديها ظلا يؤكدان لها أن الجو فى خريف تلك السنة معتدل جدا . وكانت أمها تقول عاتبة :

ــ لندن ليست بطبيعة الحال مثل أريحا ! ولكنها ليست

أشد برودة من رام الله أو القدس فى مثل هـــذا الأوان من العام .

ولم تكن هناك جدوى من تذكيرها بأن البرد فى رام الله أو القدس برد جبلى جاف يبعث العافية فى البدن ، أما هـذا البرد اللندنى فرطب يتسلل الى النخاع . وكانت تنصح ابنتها على الدوام بالخروج للسير السريع الناشط فى المتنزه العام ، باعتبار ذلك السير هو الوسيلة الفعـــالة لتنشيط الدورة الدموية والتغلب على آثار البرد القارس .

ولم تكن الزبيث تجهل أنّ صدمة ماريان بوفاة بطرس من أشد العوامل تأثيرا فى هبوط روحها المعنوية وضعف مقاومتها للحالة الجوية ، فكانت تردف : « ولكنك لن تلبثى أن تتغلبى على هذه الصدمة . فمن رحمة الله بنا جميعا أننا نحن البشر نتغلب على كل متاعبنا بفعل الزمن » .

وكانت لهجة الأم رقيقة وصادرة عن احســـاس صادق بمصيبة ابنتها ، ولكن التعبير لم يكن يواتى الزبيث بسهولة ، لأنها فقدت منذ زمن طويل القدرة على التعبير عن عواطفهـا وعطفها واعزازها ، لأن روبرت كان قد قتل ذلك كله لديها منذ سنوات طوال !

وكانت ماريان تعرف ما تضمره لها أمهـــا من العطف ، ولكنها فى الوقت نفسه تدرك أنه من المستحيل على تلك الأم أن تفهم احساسها ، لأنها لم تجرب قط فى حياتهـــا الحب المشبوب ، ولم ينزل بساحتهـــا ذلك الحرمان الموجع الذى لا يستطيع احداثه فى حياة المرء الا الموت . أجل ان فقدان ذلك الطفل ـ الذى مات فى الأسابيع الأولى من عمره ـ ربما كان موجعا لقلب الزبيث ، ولكنه لا يمكن أن يقارن بذلك الفقدان الفاجع لشخص كامل النمو قريب الى النفس بعـد معاشرة دامت أمدا طويلا من الزمن .

ان أربعة عشر عاما من الحياة الزوجية يمكن أن تعتبر فى نظر بعض الناس فترة قصيرة • والحقيقة أنه لولا النكبة الفلسطينية لامتدت هذه الحياة عشر سنوات أخرى على الأقل • وليس صحيحا على الاطلاق ان كل شىء يمكن أن تذهب الأيام المتوالية بلذعته ومرارته • **فبطرس لم تستطع الأيام المتوالية أن تنسيه بيته المغصوب ووطنه المسلوب وكرامته القومية والانسانية التى داسها اليهود بالأقدام •**

لم يستطع بطرس أن ينسى طعم الهزيمة ، وطعم المهانة ، وضياع الشخصية القومية • ولم يستطع أن ينسى — بمرور الزمن — أنه فلسطينى ، ولم يستطع فى أى وقت من الأوقات أن يدعو نفسه أردنيا • وفى النهاية غلبه القهر على أمره ، ومات كسير القلب محطم الروح • وكان شقيقه فريد على حق عندما قال وهو يذرف الدموع بجانب جثمانه :

— لقد قتلك اليهود يا أخى • قتلوك بالغم والتشتيت وعار الهزيمة !

أجل ، لم يكن من اليسير على ماريان — فى جو الخريف الانجليزى القاسى — أن تتأقلم جسدا وروحا وهى تتمشى فى متنزه (ومبلدن) مع أبيها أو مع أنطون أو بمفردها تماما • كانت الذكريات الحزينة تهاجمها على الدوام ، فلابد لها من العثور على شىء تشغل به وقتها ، كى تنسى خمائل البرتقال وأشجار السرو وشمس أريحا الحارة ، مثلما نسيت (اللد) من قبل ••• ينبغى بأى شكل من الأشكال أن تتعلم كيف تعيش بدون بطرس • بطرس الذى كان لها زوجا وأبا وحبيبا وصديقا مدى أربعة عشر عاما • **بطرس الذى عاشت فى كنفه ، والذى تعلقت به فى شغف لامزيد عليه وهى شابة ، ثم تعلمت بمرور الزمن أن تتعلق به تعلق الشكر وعرفان الجميل وهى فى أواسط العمر •**

ان عليها الآن أن تعلم نفسها بنفسهـــا كيف تعيش فى أعماق وحدتها ، تلك الوحدة الحميمة التى لا يستطيع حتى أبوها ، صديق بطرس وشبيهه فى خلائقه ، أن يتغلغل الى قرارتها ·

ذلك كله ثقيل الوقع على نفسها ، مثلما كان ثقيل الوقع على نفس أنطون أن يفقد أباه الذى يعتز به ويحبه ، وأن يجد نفســـه ـ وهو العربى المتحمس لعروبته ـ رهين المنفى فى انجلترا ، مهما تحدثوا اليه عن جمالها وما تقدمه له من فرص التعليم والتثقيف ·

ستظل انجلترا ـ لأنطون ولأمه على السواء ـ أرض المنفى ، ماداموا بعيدين عن الوطن الحقيقى ·· عن فلسطين !

- ٢ -

كانت السنة الأولى بطولها - بالنسبة لأنطون - فترة من الحيرة ، والتجارب الجديدة ، والمناظر غير المألوفة • وكثيرا ما دهمته هذه الأحوال الطارئة وأفقدته زمامه ، فلم يكن يجد ملاذا له سوى الحديث بينه وبين نفسه ، متوجها بنجواه الى صديقه وليد • **ومع أنه كان يسطر الى وليد صفحات لا تحصى في ذهنه ، الا أن كل محاولة لتدوين جزء ولو يسير من هذه الخواطر على الورق كان أقوى من طاقة احتماله** ، فلم يستطع أن يرسل الى صاحبه سوى بطاقات بريد ملونة عليها صور تمثل برج لندن ، وميدان الطرف الأغر بحمائمه المشهورة ، وسيرك بيكاديللى ، ومتنزه (ومبلدن) بطاحونة الهواء المشهورة ، والكنيسة التى يذهب اليها يوم الأحد مع جدته • وتطورت هذه البطاقات فيما بعد فحملت الى وليد نسخا من الصور المشهورة التى يحفل بها المتحف الأهلى للفنون •

وكان وليد يدرس كل هذه البطاقات البريدية بعناية واهتمام، ويحتفظ بها بين صفحات كتبه وكراساته مسرورا بها، ولكنه لم يكتب الى صديقه سطرا واحدا ، مع أن ذهنه أيضا كان حافلا بالخواطر والأحاديث التى يبثها صاحبه ، فى نجوة من الناس ، كلما خلا الى نفسه !

ولم يكن مكان أنطون فى المدرسة مهيئا لاستقباله قبل الفصل الدراسى الثانى فى شهر يناير • وفى الشهور التى سبقت ذلك الموعد بذلت ماريان قصارى جهدها كى تعرفه بمعالم لندن ، التى بدت لأنطون مترامية الأرجاء بصورة

لا يصدقها العقـــل ، فكأنما هى جملة مدن كبيرة تصب فى موضع واحد بحيث يتداخل بعضها فى بعض ٠

وكان يخيل اليه — حين ينظر الى لندن من فوق قمة احدى السيارات العامة — أنها تمتد امتدادا لامتناهيا ، كامتـــداد الصحراء ٠ **بيد أنهـــا والصحراء على طرفى نقيض ، فلندن تضج بالحياة والحركة والضوضاء ، والصحراء يرين عليهـــا الصمت والخلاء** ٠ وكانت أكبر مدينة رآها من قبل هى اللد ، التى لا يزيد عدد سكانها على خمسة عشر ألفا ٠ أما رام الله فلم تكن حينئذ أكبر من قرية كبيرة الا بمقدار غير محسوس ٠ وأما أريحا فلا تزيد فى حجم سكانها على شارع رئيسى واحد ٠ **وأما القدس القديمة ، بأزقتها التى تموج بالمـــارة والحمـــير والسلع ، فشىء آخر** ٠ ولكنها لا تضاهى فى حركة مرورهـــا الدائبة مدينة لندن ، بما فيها من سيارات خاصة وسيارات أجرة وسيارات عامة ضخمة عالية حمراء ٠ والناس جميعـــا فى هذه العاصمة العجيبة يرتدون الثياب القاتمة ، بل ان الأبنية ذاتها كانت قاتمة ٠ والسماء من فوق الناس والأبنية قاتمة أيضا ٠ والسيارات الكبيرة معظمها أمريكيـــة ، ولكن عددها بدا له قليلا جدا بالقياس الى الســيارات الانجليزية الكثيرة العدد ، الصغيرة الحجم ٠

وقد أثار اهتمامه كوبرى (برج لندن) ، وكان من حسن حظه أن يراهم يفتحون ذلك الكوبرى العملاق لتمر من تحته سفينة كبيرة عالية ٠ ولفت نظره اتساع نهر التيمز ، وشدة قذارته ، فهو لا يستخدم للرى أو الشرب بل تأتى أهميتـــه الكبرى من تلك السفن الضخمة التى تمخره قادمة من جميع أرجاء العالم ٠

وتركت زيارة أنطون لبرج لندن أثرا فى نفسه ، فاشترى نخبة من بطاقات البريد التى تصور نفائس ذلك البرج ليرسلها

تباعا الى وليد • **أما كنيسة القديس بولس فذكرته من بعيد بقبة الصخرة فى القدس • وذات يوم ، وهو متجه الى قلب لندن بالقطار ، لمح من النافذة مسجدا هو أحد مسجدى لندن الكبيرين • وقد جعله منظر المسجد يزداد ايناسا بالمدينة الكبيرة ، ففيها شيء من وطنه الأصلى** • وقد ذكرت له جدته أيضا أن بها كنيسة أرثوذكسية • ومع هذا ظل حنينه الى فلسطين أقوى من مغريات المدينة الكبرى على الدوام • وظلت رائحة « الفلافل » تداعب أنفه ، وتذكره بالحوانيت الصغيرة المنبثة فى شوارع وطنه وحواريه ، كلما أرخى المساء سدوله •

حتى أريحا بجوها الحار وصحرائها المحرقة وبحرها الميت ، كانت تداعب مخيلته فيشتد حنينه اليها ، **ويتمثل له أبوه جالسا فى الشرفة ، واضعا كفيه فوق مقبض عصاه الفضى ، تلك العصا التى كانت الشيء الوحيد الباقى له من ثروته الكبيرة فى اللد** • ولكن أنطون لم يكن يتذكر اللد بمثل ذلك الحنين ، لأنه لا يستطيع أن يتذكرها الا مختلطة أشد اختلاط وأعنفه بالرعب والمخاوف • ولذا يحس فى أعماق نفسه بأن العودة الى اللد فى حكم المستحيلة ، ولكن جده يقول له ان المستحيل كلمة لا معنى لها ، وأن وطن الفلسطينيين لابد أن يعود يوما ما الى أهل فلسطين •

* * *

قبل دخول المدرسة ببضعة أسابيع ، شرع أنطون فى العمل تحت اشراف مؤدب خاص ، كى يتسنى له الانتظام فى المدرسة الجديدة ابتداء من شهر يناير • **وكان فى كل صباح يعبر المتنزه العام مع جده الى بيت كبير عتيق يضم عددا من المكفوفين** • وكان فريق منهم مصابا بالصمم أيضا • فهوآية

جده الآن ، وقد تقدمت به السن ، أن يساعد فى الترفيه عن أولئك الناس والحديث اليهم • وقد تعلم أنطون منه كيف يخاطب الصم بلمسات يدوية مرهفة • **وكثيرا ما حدث روبرت ملبى حفيده عن المدرسة التى كان يديرها فى يافا ، وكانت تضم المكفوفين من المسلمين والمسيحيين واليهود ، على قدم المساواة •**

وفى تلك النزهات أيضا كان روبرت يحدث حفيده عن الحركات الوطنية العربية فى فلسطين قبل الحرب العالمية الثانية ، وكيف نكث الانجليز وعودهم للعرب بأن يمنحوهم الاستقلال ، عندما حاربوا الأتراك فى فترة الحرب العالمية الأولى • وكيف أن قصة انجلترا مع العرب هى قصة الخيانة والخديعة على طول الخط • **فأيقن أنطون أن حقيقة مأساة شعبه الفلسطينى — التى أدت الى قتل أبيه وقتل مئات الألوف من مواطنيه — انما ترجع أسبابها الحقيقية الى ذلك الموقف الغادر الذى وقفه الحكام الانجليز من العرب عموما ، ومن الفلسطينيين على وجه الخصوص •**

ولكم تعلقت روح أنطون بتلك النزهات مع جده — فما أشد ما كان يذكره بأبيه — فازداد شغفا بذلك العجوز المستقيم النفس ، النزيه التفكير • ولا عجب اذن أن يكون شعوره نحو جدته أقل حرارة من شعوره نحو جده بكثير • انه يأنس الى صحبتها — ما فى ذلك شك — ولكن ذلك الأنس ليس صادرا عن تعلق حقيقى ، بل عن عدم مبالاة ! فهو يذهب معها صباح كل يوم أحد الى الكنيسة ، ويجد راحة نفسية فى جو تلك الكنيسة الانجليزية ، وهو أقل عتمة بكثير من جو الكنيسة الأرثوذكسية الصغيرة فى أريحا • وقد أدهشه فى بداية الأمر أن يجد الرجال والنساء يجلسون متجاورين ، لأن الناس فى لندن لا يعرفون الفصل بين الجنسين • **وكانت نفسه**

تحن بين الفينة والفينة الى سماع الألفاظ العربية التى تردد فى كنيسة أريحا ، عندما يتلو القسيس الصلاة أو يردد الشمامسة التراتيل • ولكنه لم يكن يحدث أحدا بحنينه الى وطنه • حتى ولا جده الحبيب الذى يحب ذلك الوطن • فقد أبقى لنفسه حلمه المشترك مع وليد : **حلم طريق بئر سبع** ، الى أن يحين الوقت ، فتنتهى فترة هذا النفى ويعود الى تلك الأرض التى كانت يوما ما جزءا من فلسطين !

* * *

وأخيرا ، فى شهر ديسمبر كتب الى وليد يقول :

– ياعزيزى وليد ، أرجو أن تكون قد وصلتك البطاقات البريدية التى أرسلتها اليك • ويؤسفنى أنى لم أستطع ارسال خطاب اليك قبل هذا ، لأنى كنت مختلط التفكير بسبب الحياة الجديدة من جميع الوجوه التى تحيط بى هنا • لقد أخذونى لمقابلة ناظر مدرسة « كلية الملك » التى سأنتظم فى صفوفها فى يناير القادم ، وكان الرجل لطيفا جدا معى ، وحسن الظن بى ، ولكننى سأؤدى امتحانا تحريريا يسمونه امتحان القبول فى هذا الشهر ، فاذا كتب لى النجاح فيه تقدمت للامتحان الشفوى أمام لجنة • وهذا هو النظام المتبع مع جميع المتقدمين للالتحاق بالمدرسة • وجدى واثق أننى سأنجح • وهو شخصيا كان تلميذا بهذه المدرسة نفسها فى سنة ١٩٠٥ • وأنا لا أعتقد أن الدراسات ستكون مختلفة كثيرا عن الدراسة بمدرسة الأصدقاء ، ولكنى سأضطر فى الغالب للجد ليل نهار ، مدة ثلاثة أشهر على الأقل ، تحت اشراف مدرس خاص • ولذا قد لا أكتب اليك مرة أخرى قبل مضى مدة طويلة ، **ولكن أرجو أن تثق بأننى أفكر فيك طول الوقت ، وفيما كنا نفعله معا ونتحدث فيه ونرسم خططه** • وأرجو أن تكون

أحوالك على ما يرام من جميع الوجوه . وقريبا ان شاء الله سأعود ونستأنف جولاتنا معا . تحياتي الى فؤاد .

وقد سعد وليد كثيرا بتلقى هذا الخطاب وقرأه عدة مرات ، فى الفصل ، وفى الفناء ، وفى بيت عمه بالليل . ولكنه لم يكتب ردا عليه لأن الرد على الرسائل لم يكن من عادته . **وهو متأكد أن صديقه لا ينتظر منه ردا . ويوما ما سيجتمعان بجسديهما وينفذان معا الخطة التى رسمها عمه منير . أما الآن فهى فترة انتظار وترقب واستعداد .**

وفى عيد الميلاد تلقى وليد بطاقة بريد تفيد نجاح أنطون فى الامتحان التحريرى بتفوق . ورد وليد عليه ببطاقة ملونة عليها صورة قبة الصخرة المقدسة ، كتب على ظهرها تحياته وتحيات أصحابه .

ومرت فترة طويلة أخرى قبل أن يكتب أنطون الى وليد . وكانت رسالته هذه المرة طافحة بشكواه من رطوبة جو لندن ، ومن قسوة شتاء انجلترا ، بحيث أصيب أنطون بالبرد ولم تفارقه الرجفة التى لم تنفع فى ايقافها مواقد الفحم فى حجرة جلوس جده الصغيرة . وحدثه بالتفصيل عن مدرسه الخاص « جيرالد جونز » الذى أصيب بشلل الأطفال وهو فى السنة الأخيرة بجامعة اكسفورد ، فانقطعت دراسته وصار يتنقل فى أرجاء البيت والحديقة على مقعد ذى عجلات ، ويقضى وقته كله فى المطالعة ، فلديه مكتبة ضخمة . وأظهر مستر جونز اهتماما كبيرا بالشرق الأوسط والبلاد العربية بوجه خاص ، وأبدى عطفا كبيرا على الفلسطينيين . وكان ينوى قبل مرضه أن يزور تلك البلاد بمجرد تخرجه ، ولكن كارثة مرضه قضت على ذلك كله . الا أنه وجد فى صلته بأنطون منصور فرصة طيبة للحديث عن فلسطين وأحوال أهلها .

ولكم امتلأت نفس مستر جونز بالهلع والاستنكار عندما

وصف له أنطون المسيرة الرهيبة من اللد الى رام الله • واحتقن وجه الرجل الانجليزى المثقف بالغضب والسخط على تلك القوى الشريرة التى تحالفت ضد هذا الشعب المسالم البرىء •

وشرح له أنطون بعد ذلك رأى صديقه وليد الذى هاجرت أسرته من بئر سبع ، وكيف أنه يؤمن بقدرة الفلسطينيين على استرداد أوطانهم وديارهم اذا هم نظموا صفوفهم أحسن تنظيم • وكيف أن بعض كبار السن يرون ذلك أمرا شبه مستحيل •• فقال له مستر « جونز » :

– وما وجه استحالته يابنى ؟ لكم شهد التاريخ من امبراطوريات قامت على البطش والقوة الغاشمة ، ثم هزمتها شعوب عزلاء الا من قوة الايمان وسلاح الاصرار والتضحية • ولقد رأينا بأعيننا هذه الامبراطورية البريطانية تتلاشى بعد بقاء وشموخ ، وكانت الشمس لا تغرب عن أرجائها – **وان كان الهنود الوطنيون الظرفاء يقولون أن الشمس لم تكن تغرب عن الامبراطورية لأن الله لا يثق بالانجليز لو أسدل عليهم ستار الليل !!** – ومع هذا غربت شمس تلك الامبراطورية العتيدة ، وتحررت الشعوب التى كانت ترسف فى قيودها • والرايخ الثالث – رايخ هتلر – الذى كان « الفوهرر » يقدر له البقاء ألف سنة على الأقل ، أين هو الآن ؟ لقد انتهى وصار أثرا بعد عين ! •• **فكيف يداخل أحد الشك فى زوال دولة ملفقة كاسرائيل ، بحيث يتحرر فلسطين ؟ ان الظلم يقضى على نفسه ، والشر يأكل بعضه بعضا ، لأن عوامل الفساد والفناء فى صميم تكوينه • هذا هو حكم التاريخ ، وهذا هو تياره الحتمى الذى لا محيص عنه •**

ولم يسطر أنطون هذه الاحاديث على الورق ، ولم يبعث بها فى رسائل الى وليد ، ولكنه سجلها فى قلبه ، وادخرها ليوم يلتقى فيه بصاحبه على أرض الوطن •• للقيام بعمل مشترك •

***

ولن ينسى أنطون ـ ما عاش ـ حادثا وقع له فى أسبوع عيد الميلاد ورأس السنة . فقد أخذه جداه الى بضعة بيوت انجليزية صديقة فى تلك الفترة ، ليشهد جانبا بارزا من الحياة الاجتماعية الانجليزية . وكان الناس فى تلك السهرات الصغيرة يبدون اهتماما مهذبا به ، ويقدمون له أشربة حلوة ، **ويسألونه عن دراسته وعن بلاده ، وهل بها مدارس انجليزية على مستوى حسن ، ومنهم من كان يطلب اليه أن يتحدث بالعربية كى يسمع تلك اللغة الغريبة !**

وفى احدى تلك السهرات أقبلت عليه امرأة بدينة ، حمراء الوجه ، يملأ النمش الكبير محياها ، وقالت له :

ـ لقد سمعت انك من اللاجئين . ولذا اردت أن أشد على يدك محيية ، لأننى كنت دائما ذات ميول موالية لليهود ، وأنتهز كل فرصة للدفاع عنهم وتأييد حقوقهم .. فقد كانت جدة أمى يهودية ..

وارتبك أنطون أمام ابتسامة السيدة وأدرك التباس الأمر عليها ، فقال :

ـ انا آسف يا سيدتى .. يعنى .. انا لست يهوديا . بل مسيحى .

واذا بالاشراق والتهلل يختفيان من وجه المرأة البدينة ، كأنما ابتلعته الأرض فجأة ، وسألته بحدة :

ـ ألست لاجئا .. ؟

ـ بلى . نحن لاجئون ، أعنى اسرتى لاجئة .. ولكننا لاجئون فلسطينيون . فقد كان أبى فلسطينيا .. عربيا !

ـ ماذا تقول ؟ ! عربى ؟ !

وراحت المرأة تنظر اليه بامتعاض وفزع ، كأنما هو قد قال

لها انه من المصابين بالجذام مثلا ‏٠٠ ! ثم جذبت ذراع رجل كان يتحدث بقربها الى فتاة وقالت له :

ـ هل سمعت ما قاله هذا الفتى ؟ انه يقول انه عربى ! ؟

وراح الرجل ينقل بصره بينها وبين أنطون ثم قال :

ـ وانه لكذلك فعلا ‏٠ فهو نصف عربى على الأقل ‏٠ انه حفيد روبرت ملبى ، وماريان ملبى كانت متزوجة من فلسطينى عربى ‏٠

وابتسم الرجل ابتسامة ودية للغلام ثم التفت الى الفتاة التى كان يتحدث اليها ، وانتهز أنطون هذه الفرصة وابتعد عن المرأة التى ظلت تحدق فيه باستنكار وكأنها رأت عفريتاً !

ولما روى أنطون هذا الحادث لجده ابتسم الرجل الطيب تلك الابتسامة التى كانت تذكره دائما بابتسامة أبيه وقال له :

ـ انك ستلقى يابنى الكثير من هذا هنا ‏٠ **فسواد الشعب البريطانى غير المثقف ظل يسمع عن اللاجئين اليهود منذ سنوات طويلة قبل الحرب العالمية ‏٠ أما اللاجئون العرب فلم يسمع الشعب الانجليزى عنهم شيئا تقريبا ‏٠ فاذا قيل أمامهم « هذا لاجىء » ظنوا انه لاجىء يهودى ، وليس لاجئا من العدوان اليهودى !**

***

وفى عطلة عيد الفصح كتب أنطون خطابا مطولا آخر الى صديقه وليد يخبره بانتظامه فى المدرسة ، ودخوله التدريب العسكرى كى يتعلم التصويب بالبندقية ، وكيفية استخدام المدافع الرشاشة المختلفة ، واشتراكه فى سباق اختراق الضاحية ‏٠ وحدثه أيضا عن مدرسه الخاص الذى انتهت مدة عمله معه ، ولكنه يزوره كصديق فى عطلة الاسبوع ‏٠٠ وان

مستر جونز يقترح عليه أن يعمل بعد تخرجه فى وكالة اغاثة اللاجئين التى انشأتها الأمم المتحدة • وقد وافق جده على هذه الفكرة ورتب مع ناظر المدرسة اعداده للالتحاق بمدرسة العلوم الاقتصادية التابعة لجامعة لندن للحصول منها على دبلوم فى العلوم الاجتماعية ••

وفى هذه الرسالة أيضا ترددت شكوى أنطون من جهل زملائه بالمدرسة بأحوال فلسطين ، **ومعظمهم كانوا يعتبرون كلمة فلسطينى مرادفة لكلمة يهودى ، ويعجبون لوجود عرب فى فلسطين ! وكل ذلك بطبيعة الحال نتيجة للدعاية اليهودية المتلاحقة ••**

وأخبر أنطون صديقه بأن روح الزملاء قد بدأت فى التحسن ببطء ، وانه يأمل فى التغلب على أفكارهم الموروثة ضد العرب بمرور الوقت • وأن أمه قد التحقت بعمل منذ بداية العام فى دار للنشر تهتم بأمور الشرق الأوسط ، وتقيم بمسكن فى وسط لندن ، ولا تأتى الى بيت أبويها الا فى عطلة الأسبوع • وآنه أحيانا يذهب الى مسكنها فى عطلة الأسبوع ليقوما معا باكتشاف مجاهل لندن ••

ولم ينس أنطون فى النهاية أن يؤكد له مواثيق الصداقة ، **وان اليوم آت لا ريب فيه للعمل معا فى ميدان الكفاح الوطنى ، بعد أن تنتهى فترة هذا « المنفى »** •

- ٣ -

كان الاعتقاد السائد ـ لدى جدى أنطون ووالدته وأساتذته فى المدرسة ـ انه « تأقلم » و « تكيف » بالجو الانجليزى والحياة الانجليزية على أتم وجه ممكن . ولكن « جيرالد جونز » وحده ـ بما كان يعرف عن التأقلم والتكيف بصورة علمية وعملية ـ هو الذى كان يشك كثيرا جدا فى حقيقة ذلك التكيف الرائع المزعوم .

لقد كان أنطون فى ظاهر أمره فتى « انبساطيا » غير منطو على نفسه ، يشارك فى النشاط المدرسى ولا سيما فى ملاعب المدرسة وفرقها الرياضية بشتى أنواعها ، ويسهم فى التدريب العسكرى بشغف كبير ويبذل جهدا كبيرا فى مناوراته ومبارياته الشاقة ، ويحرص على الابتسام والدماثة وتقبل النكات اللاذعة بصدر رحب ، **وكانت معظم نكات رفاقه فى المدرسة تنصب على « الشيوخ » و « الحريم » وحياة القبيلة فى الصحراء !**

ولكن الى جانب هـــذا لم يكن أنطون يعتبر تلك الروح الاجتماعيـــة الشائعة بين الزملاء ذات صلة ما بالصـــداقة الخاصة . فالكل صحاب له ورفاق مرحون ، وهو مرح ودمث مع الجميع ، ولكن ليس له صديق بالمعنى الخاص لتلك الكلمة . وكثيرا ما كان يذهب الى رحلات ونزهات فى نادى التجديف بالمدرسة .. أو فى نادى الطيران صباح يوم الأحد ، أو يزور زميلا فى بيته يكون قـــد أبدى نحوه فهما خاصـــا وهو من الطلاب الفقراء الذين يتعلمون بالمجان لتفوقهم ـ على خلاف المستوى السائد بين التلاميـــذ وكلهم من أبناء الميسورين ـ

ويتناول لديه « الشاى الكبير » • وفى بعض الاحيان كان يزور بيت زميل آخر قريب من بيت جده ليشاهد التليفزيون ، لآن جده لم يقتن ذلك الجهاز المبتكر • وكان اسم هذا الصديق « مايكل لندلى » • وأحيانا كان يذهب معه لمشاهدة أحد الافلام « الجبارة » - على حد تعبير مايكل - فى احدى دور السينما القريبة من البيت • ومعظم هذه الأفلام « الجبارة » تدور حول الحرب والمغامرات • ولم تكن هذه الموضوعات تعنى أنطون كثيرا ، ولكنه كان يذهب مجاملة لزميله ، ولأن الموافقة أسهل عليه من الرفض أو الاعتراض •

أما الأشياء المحببة اليه حقا فهى التنزه سيرا على الاقدام مع جده فى المتنزه العام الكبير ، أو السير بمفرده فى الغابة وهو يرسل خواطره الى بعيد ، **حيث يصحب « وليد » فى رحلات ذهنية ووطنية ، ويفكر فى أحلامهما التى يحس انها أصدق وأكثر واقعية من هذا الحاضر الذى يعيش فيه منفيا ، قلبا وقالبا** •• ويتلو تلك النزهات فى المكانة والايثار نزهاته يوم الأحد مع أمه وزياراتهما للمتاحف الفنية ، وأحاديثه الدسمة المثيرة للذهن والقلب مع معلمه السابق المصاب بشلل الاطفال « جيرالد جونز » •

ولم يدر بخلده طبعا أن « جيرالد جونز » يمكن أن يحل في قلبه محل صديقه العربى وليد ، لأن جونز كان فى الخامسة والعشرين ، وهى سن تبدو لأنطون كبيرة نسبيا بطبيعة الحال ، بيد أنه كان يحب تلك الحجرة المبطنة جدرانها من الارض الى السقف بالكتب ، فى ذلك البيت الكبير القبيح الشكل •• ويحب تلك المعاملة السمحة التى يعامله بها أستاذه السابق ، وهى معاملة الند للند ، التى تخفف عن كاهله الشعور القاسى بعدم النضج ، ذلك الشعور الذى كثيرا ماعانى منه حتى وهو فى صحبة وليد بشخصيته الطاغية •

بل انه مع جونز يستطيع أن يكون صاحب اليد العليا ، **لأنه يتحدث اليه عن فلسطين وأحوالها ، ويجيب على أسئلة جونز التي يوجهها اليه بطريقة تشعره بأنه مصدر هام للمعرفة، وما أحب ذلك الى نفس أنطون بعد ساعات الدرس الطويلة التى يتلقى فيها المعلومات من أساتذة يعتبرونه جاهلا على الدوام ، ويشعر أمامهم فعلا بأنه جاهل ٠** وشتان ما بين هذا الشعور ، وذلك الشعور الذى يوحيه اليه جونز وهو يصغى لاجاباته فى تقدير واهتمام ٠

وكذلك كانت مسز جونز – والدة جيرالد جونز الارملة – تعامله بمودة وكأنه رجل ناضج ، وتسأله رأيه فى بعض نوابغ الممثلين الانجليز الذين يشهد أفلامهم أحيانا ، مثل « السير جوينس » الممثل والمخرج العبقرى ٠٠ وهو احساس لا توحيه اليه جدته ولا والدته ، فلا عجب اذا ألفى نفسه على سجيته ، واستمتع بشعور بنمو شخصيته لم يتوفر له فى بيته ولا فى مدرسته ٠

انه فى مدرسته مطالب دائما بالتظاهر بالسرور والمرح وسعة الصدر أمام المضايقات والنكات اللاذعة أو السمجة ، حتى لايقال عنه أنه « انطوائى » ٠ فهو من خوف الانطوائية فى انطواء يتخذ صورة « الانبساط » ٠٠ ولا سيما أن اسمه وسحنته وكل شىء فيه يذكر زملاءه باختلافه عنهم فى المنبت والسلالة والتكوين النفسى والاجتماعى ٠ أما هنا فهو لا يتصنع شيئا ، ولا يحس بحاجته الى التصنع أو التظاهر ٠٠ وعناصر تفرده التى تحسب « عليه » فى المدرسة تحسب « له » هنا فى بيت آل جونز مزية يستحق بسببها الرعاية والاهتمام والتقدير.

ومع هذا كله لم يفض أنطون حتى ولا لجيرالد جونز بحلمه المقدس حول طريق بئر سبع ، طريق العودة ، طريق النضال ٠

فهذا سر بينه وبين وليد ، وليس من حقه أن يبوح به لأحد . فطريق بئر سبع هو رمز عقيدته الوطنية التى لا تقل قداسة لديه عن عقيدته الدينية ..

وهذا السر المقدس هو الذى يكمن وراء قلقه وعدم استقراره، ذلك القلق الذى يختفى تحت سطح ظاهرى من المرح والدماثة . وقد استطاع جونز الشاب المقعد المشدود على مقعده ذى العجلات ان يستشف هذا القلق ويحكم بأن الفتى العربى لم يستطع بعد أن يصل الى « التأقلم » بالحياة الانجليزية ، رغم كل هذه الظواهر الخادعة .

ان جونز شخصيا لم يكن يشعر انه على سجيته وهو فى اكسفورد ، رغم سمعته بين أقرانه بأنه شاب مرح سليم الطوية . وقد ظل الناس مخدوعين فيه الى أن حلت به كارثة المرض المقعد ، فحررته أخيرا من تكاليف التظاهر الخادع ارضاء لمن حوله !

وان وراء ابتسامة أنطون البريئة المشرقة لكثيرا جدا مما لا يخطر ببال زملائه الانجليز . فهذا الفتى البرىء — كأنه شماس فى فرقة المرتلين بالكنيسة — قد سمع بأذنيه منذ سنين صرخات العذارى يغتصبهن جنود اليهود .. وصيحات النساء العقيلات المحصنات ينتهك حرمتهن جنود اسرائيل ! ..
ورأى بعينيه رجالا ونساء من مواطنيه يشربون بول بعضهم البعض ، ويتقاتلون على الظفر بقطرة منه ! .. شهد بنفسه كيف تجرد الناس من انسانيتهم تحت وطأة ذلك الاضطهاد الوحشى فى البرية ، ورأى وجها لوجه ملك الموت وهو يطارد الناس مطاردة رهيبة مفزعة ..!

كل هذا كان جونز يعرفه ، فلم يصدق لحظة واحدة أن أنطون يمكن أن ينسى تلك الذكريات المروعة ، أو ان تظاهره المتقن

بالاستسلام والانقياد لمشيئة الله يمكن أن يدل على حقيقة حالته النفسية ٠ ان « التأقلم » فى هذه الحالة لا يمكن أن يدل على طبيعة سوية خالية من الشذوذ ، بل هو فى مثل هذه الظروف دليل قاطع على الشذوذ ، وتبلد الاحساس ٠

ولذا كان جونز واثقا كل الثقة أن أنطون منصور يحن الى وطنه فلسطين العربى حنينا ملحا لا هوادة فيه ٠٠ حنينا مضاعفا ، لأنه قاسى الانتزاع من جذوره الاصلية فى منبته الاول بمدينة اللد ، يوم تلك المسيرة الرهيبة المشئومة ٠٠ ثم قاسى مرة اخرى الانتزاع من وطنه كله ليعيش فى لندن بجوها القارس وأحوالها الاجتماعية الفكرية التى لا تمت الى الشرق بصلة ، ولا سيما أن رحيله من اريحا الى لندن جاء على أثر فجيعته فى أبيه الذى كان يحبه أشد الحب ٠

لابد أن يكون المرء أبلها أو معتوها حتى تزايل احساسه مثل هذه الكوارث المزلزلة بهذه السرعة وهذا اليسر الذى يتوهمه المخدوعون بمرح الفتى ودماثته ٠ ولكن أنطون منصور فتى ذكى العقل والقلب ، مرهف الحس ، فلا يمكن اذن أن يكون هذا موقفه الحقيقى ٠ ولابد أن ثمة توترا شديدا تحت هذا القناع التمثيلى المتهلل على الدوام ٠٠

كان هذا رأى جيرالد جونز ، وكان أنطون لا يعرف عن هذا الرأى شيئا ، وكل ما هناك أنه يحس بعدم حاجته الى التظاهر وهو فى بيت آل جونز ٠٠ ولكنه كان يأنس للوحدة أكثر أيضا مما يأنس الى بيت آل جونز ٠٠ لأنه فى وحدته يستطيع أن يطلق العنان لخواطره ويتصور نفسه فى مروج (رام الله) وروابيها أو فى كنف جبل التجربة عند أريحا ، فى صحبة صديقه وليد ٠

وفى أول صيف قضاه بانجلترا بعد انتهاء السنة الدراسية، كتب الى وليد يقول له :



« .. لأنه فى وحدته يستطيع أن يطلق العنان لخواطره ويتصور نفسه فى مروج (رام الله) وروابيها ، أو فى كنف جبل التجربة عند أريحا ، فى صحبة صديقه وليد ! .. وقد كتب اليه يقول : »

« لقد حظينا هنا ببضعة أيام من الدفء وصلت فيها درجة الحرارة الى ٨٠ فهرنهيت ، فلبس الناس نظارات سوداء وراحوا يقولون : ألاما أشد هذا الحر ! .. وعندما أقول لصحابى الانجليز أن الحرارة فى أريحا فى مثل هذه الايام تصل الى حد فظيع جدا حتى أن الذباب يموت من وطأة الحر ، يظنون أننى أمزح ، ولا يتصورون حرارة أشد من ٨٠ فهرنهيت ! » .

وقد انتهزت ماريان فرصة اجازة حصلت عليها من عملها فصحبت أنطون الى مقاطعة (بريتانى) بفرنسا ، لا لشىء الا لتتخلص من جو انجلترا وأهلها وتستمتع بمنظر البحر على هواها . وكانت قد صحبت والديها فى فترة طفولتها الى هذا الموضع عينه أثناء أجازة حصلوا عليها أثناء خدمة أبيها فى فلسطين ، فكانت (سان مالو) بالذات من الأماكن التى ظلت عالقة بذهنها منذ ذلك الحين باعتبارها منتجعا للجمال الطبيعى الأخاذ . والى هناك صحبت ابنها مع أنها كانت تعلم سلفا أن أكثر من ثلاثة أرباع مدينة سان مالو العتيقة ذات الأسوار قد تهدمت أو أحرقت أثناء معركة تحريرها فى سنة ١٩٤٤ . ولكن قيل لها انها جددت بسرعة وأن حصون القرن الثانى عشر التاريخية لم تزل على حالها لم يمسسها اذى .

وكانت الرحلة البحرية الليلية الى هناك مثيرة جدا بالنسبة لانطون الذى لم يركب باخرة قبل ذلك ، وانما كانت رحلاته كلها عبر البحر بالطائرة . وكان تفكيره فى أثناء تلك الرحلة البديعة منصرفا الى صديقه وليد . أما أمه ماريان فكان تفكيرها منصرفا الى بطرس منصور ، وهى تتساءل لماذا لم يرحلا معا الى أوربا مثل هذه الرحلة الجميلة التى تتراءى فيها طيور النورس محمومة صائحة فوق رءوس الركاب ؟ لماذا لم يتجاوزا فى رحلاتهما بيروت عاصمة لبنان ؟ وكان الجواب الطبيعى الذى خطر لها ان

رغبتهما لم تتجه هذا الاتجاه ، ولو شاءا لما حال بينهما وبين تلك المتعة شيء . فان بطرسا كان يحب بيروت حبا جما ، فكان يختارها للنزهة والاستجمام كلما نزعت نفسه الى التغيير . وكانت رغبة بطرس قانونا نافذا على الدوام بالنسبة لها ، فلم تفكر قط فى مخالفته أو اقتراح شيء غير الذى خطر بباله . ولكن لو أن المقادير أمهلته بضع سنوات أخرى لحضر معها ومع أنطون الى انجلترا لاتاحة فرصة اتمام التعليم لوحيدهما ، وعندئذ كانت (سان مالو) وما اليها من الاماكن الجميلة فى أوربا حرية أن تفوز باختياره عوضا عن بيروت .. **ولكن هذا كله لم يسمح به الزمن لأن « النكبة » حطمت قلب بطرس قبل الأوان ..**

ولاحت منها نظرة الى أنطون وهو واقف بجوارها مستندا الى سياج الباخرة ، والهواء يعبث بشعره الأسود الغزير ، ونظرة جد واهتمام تتراءى فى عينيه ، فقالت فى نفسها :

ـ هذا أنطون بن بطرس منصور .. وليس الفتى الذى كان يرتدى منذ أيام قلائل قبعة المدرسة الانجليزية ولا يكاد المرء يميزه بحال من الأحوال من سائر أبناء الانجليز أقرانه فى السن . هذا أنطون صديق وليد الذى ذهب معه فى عيد الفصح قبل المنصرم الى الخليل ، **وقد أطلق الآن من أسر الحياة الانجليزية وشكلياتها وارتد الى عنصره الاصيل . انه بعينه أنطون الذى سيعود يوما ما الى مسقط رأسه وأرض ميعاده ووطن أبيه وأجداده العرب ..**

وعندما طلع النهار وخرجا من قمرتهما بالسفينة ليلفيا نفسيهما تحت أسوار سان مالو تقريبا ، صاح أنطون فى حبور :

ـ ألا ما أشبهها بمدينة القدس !

ـ نعم . على نحو ما . ولكن الحياة وراء هذه الأسوار مختلفة تماما عن الحياة التى وراء أسوار القدس . كما أن هذه الاسوار

التى تراها أقدم من أسوار القدس بنحو أربعة قرون !

ونزلا فى فندق صغير يقع فى شارع ضيق منحدر يكثر فيه المصطافون الى درجة الازدحام ، وعلى جانبيه عشرات من حوانيت الفاكهة والخضر ، والمقاهى الصغيرة ، مما ذكره الى حد ما بجو مدينة القدس القديمة • ولكن ماريان شددت على أنطون كى لا يصرف اهتمامه الى الشوارع الضيقة ، لانهما لم يأتيا لرؤية الحوانيت والمقاهى والازقة الداخلية ، بل للتمتع بالبحر وهوائه وأمواجه الزبرجدية •

وأوشك الفتى وأمه أن ينسيا نفسيهما وهما يتطلعان الى جمال البحر الصافى ، بخضرته الشاحبة ، من فوق تحصينات المدينة التاريخية • والحق أن المنظر من هناك لا يمله المرء ولو قضى فى ذلك ساعات النهار جميعا •

وعندما انخفض مستوى الماء بانحسار المد ، سارا معا الى الجزيرة الصغيرة التى يواجه فيها البحر الصاخب اللامتناهى **ضريح من الجرانيت دفن فيه الكاتب الفرنسى العظيم « شاتوبريان » ، تحف به الازهار البرية الكثيرة التى يحمل الهواء عبيرها المسكر مع كل نسمة من نسماته ، مختلطا برائحة العشب البحرى المتراكم ••**

وعثرا على فجوة بين الصخور بعيدة عن مهب الريح ينمو فيها العشب البرى والاقحوان ، وهناك افترشا الارض ، وتنهد أنطون بارتياح وهو يملأ عينيه وصدره من البحر وهوائه،وقال :

ـ ألا ليتنا لا نعود الى لندن !

ـ حقا ؟ لقد حسبتك تحب لندن بما لك فيها من أصدقاء ، وزملاء فى المدرسة ، وفرق رياضية ، والمتنزه العام الكبير ••

ـ كل هذا حسن ، ولكننى أشعر باننى لا أنتمى الى شىء من هذا •

– ولكنك يا بنى نصف انجليزى !

– أعلم هذا . ولكنى لم أولد هنـــاك . ولم أعش فى تلك الديار قبل هذا العام ..

– ولكنك أقل انتماء الى هذا المكان – من أرض فرنسا – الذى لا تربطك به ولو آصرة اللغة .

فبادر يرد عليها قائلا :

– بالعكس ! ان انعدام آصرة اللغة من شأنه أن يجعل الأمر أسهل على نفسى !

– لمـاذا ؟

– لأننى فى هذه الحالة سوف لا أكون مطالبـا بالاختلاط والاندماج الاجتماعى الكلى .. والحقيقة انى لا أشعر فى جميع الاوقات برغبة فى الاندماج الاجتماعى .

– ادرك ماذا تعنى ، ولكن لابد لك من التعليم كما تعلم .

– **لقد كنت أتعلم على ما يرام وانا فى (رام الله) !**

– ولم يكن فى وسعى أن أبقى فى الاردن يا أنطون ، وأبوك نفسه فى الليلة السابقة لوفاته أوصانى أن ..

وتهدج صوتها وراحت تلتمس منديلها فى حقيبة يدها وهى تحاول عبثا رد طوفان الدموع التى انبجست فجأة .. فاستولى على أنطون الندم وقال لها :

– واها لى ! لقد سببت لك الاسى فى هذه اللحظة الجميلة. أرجوك ألا تحزنى وتبتئسى ! انى على خير حال فى لندن ، وكل ماهناك انى أشعر بالحنين الى وطنى أحيانا ، واشتاق الى وليد . ولما وجدت نفسى هنا بعيدا عن انجلترا ، تجدد عندى هذا الحنين والشوق ..

– أعلم هذا يا ولدى . ولكن تذكر انك ستكون فى الخامسة عشرة من عمرك هذا العام ، وبعد ثلاثة أعوام أخرى ستعود الى

الاردن ان شاء الله ! وهى ليست بالمدة الطويلة ، أليس كذلك ؟

– كلا فى الواقع ..

ونهض قائما على قدميه ومد يده الى أمه ليعينها على النهوض، قائلا :

– هيا بنا نتم جولتنا حول الجزيرة ثم نعود الى التحصينات لنحظى هناك بتناول « الجيلاتى » فى شرفة المقهى تحت المظلات الكبيرة !

وانجابت أمام هبات هواء البحر الطلقة سحابة الأسى ، ولم تبق أمامهما سوى صفحة الحاضر البهيج ..

- ٤ -

كان مقسوما لرحلة (سان مالو) ان تظل ذكرى مفردة فى ذهن أنطون وأمه ، لأنها كانت الرحلة الوحيدة لهما فى العطلات • فقد قرر « روبرت ملبى » ان غلاما فى الخامسة عشرة لا ينبغى أن يقضى عطلاته ملازما لأمه على هذا النحو ، ووافقت ماريان اباها على مضض ••

وتغير بالفعل منوال حياتهما • فعندما حل الصيف التالى كانت ماريان شديدة الانهماك فى عملها ، أما انطون فذهب مع رفاقه فى التدريب العسكرى الى معسكر صيفى ابتداء من شهر يوليو ، وكان قد حصل قبل ذلك على « شريط » صار مصدر اعتزازه وزهوه ، وجعله يشعر بأنه أكبر سنا بكثير من الغلام الذى ذهب منذ عام واحد الى (سان مالو) فى صحبة والدته • **لقد صار انطون بطرس منصور « أومباشيا » ، ثم لم يلبث أن صار «جاويشا» ، الأمر الذى جعله يبرز صدره الى الأمام ويبدو أكثر ثقة بنفسه فى كسوته الصفراء !••** وقد ساعده ذلك على عدم اللجوء الى التظاهر كى يكسب تقدير رفاقه ، لأنه صار الآن « شيئا مذكورا » بغير حاجة الى استرضاء أحد •

أما ماريان فاندمجت فى قسم التحرير بصحيفة الشرق الأوسط التى تعمل بها ، واستفادوا من معرفتها للغة العربية فبعثوا بها فى الصيف الى بيروت لجمع معلومات معينة ، ثم طارت من هناك الى الكويت أثناء وجود انطون فى معسكر التدريب • ومن الشرق كتبت الى أمها تخبرها انها سوف لا تعود الى انجلترا

الا بعد عيد الميلاد ، وطلبت منها السماح لانطون بالذهاب الى سويسرا فى الشتاء للتمتع بالانزلاق على الجليد مع زميله لندلى فى عطلة عيد الميلاد ورأس السنة ٠

وبطبيعة الحال رحب انطون بهذه الفكرة ترحيبا كبيرا ، لأنه كان زاهدا جدا فى قضاء عيد الميلاد فى انجلترا بعد تجربته الأولى ٠ وفى الوقت نفسه كان يحب « لندلى » كثيرا ـ وهو أكبر منه سنا بعض الشيء ـ لأنه يشاركه الاهتمام بمعسكرات التدريب ويذهب معه فى أيام الصيف فى ساعة مبكرة للسباحة قبل موعد الدراسة فى بحيرة صغيرة محاطة بالأشجار الكثيفة قرب طاحونة الهواء فى المتنزه العام ٠ والماء فى تلك الساعة يكون باردا كالثلج ، والرحلة الى هناك على الدراجة تبعث النشاط والمرح ٠ وبعد السباحة يعودان معا الى بيت جديه لتناول الافطار بشهية عظيمة ٠

ولم يقصر أنطون فى واجباته المدرسية رغم هذا النشاط الرياضى المتنوع ، ونجح بتفوق فى امتحان آخر السنة ، وبذلك لم تبق أمامه الا سنتان على التخرج ٠٠

* * *

لكن ماريان عادت فى تلك السنة قبل عيد الميلاد ، وبذلك ألغى أنطون رحلته الى سويسرا وقضى العطلة مع أمه وجديه ، الا أنه لم يذهب معهم الى السهرات العائلية ، بل قضى سهرات مع رفاقه التقى فيها بفتيات كثيرات ، **بيد أنه لم يشعر بارتياح الى صحبتهن ٠ ولما وجدنه خجولا مرتبكا فى معاملتهن ، متحفظا فى حديثه وحركاته معهن ، استصغرن شأنه واعتبرنه « تلميذا » غشيما فى أمور الغرام !**

وتجول مع والدته عشية عيد الميلاد فى ميدان الطرف الأغر ،

واستمع للترتيل الشجى ، واستمتع بالشجرة السكندنافية العملاقة المعدة فى الميدان بمناسبة عيد الميلاد • وفى صباح عيد الميلاد ذهبوا جميعا ـ بما فيهم جده ـ الى الكنيسة •

وكانت هذه الفترة بداية انحسار فى صداقته بلندلى ، الذى أبدى فى حفلات عيد الميلاد اهتماما واضحا بصحبة الفتيات ، لا عن اهتمام بواحدة منهن بالذات ، بل كان « الجنس » فى مجموعه يستهويه بصورة خارقة لم يسترح اليها أنطون !

أجل آنهما لم يزالا على عهدهما من السير معا أثناء فترات الراحة بين الدروس ، ولكن التقاءهما خارج المدرسة قل كثيرا عن ذى قبل ، **لأن أنطون شعر بعدم القابلية أو عدم القدرة على مجاراته فى اهتماماته الجنسية الجديدة • بيد أن ذلك لم يثقل على نفس أنطون ، لأنه من جانبه استحدث لنفسه اهتماما من نوع جديد خاص به ، وهو الاهتمام بالكتب** • لقد كان يشعر قبل الآن أن عدم استقراره يمنعه من قراءة أى شىء سوى ما تتطلبه دراسته من الكتب العلمية • ولم يكن لديه متسع من الوقت للقراءة الخاصة كهواية • وحتى فى تلك الأوقات التى لم يكن ذهنه فيها مركزا على موضوعات الدرس ، **كان خياله يشرد به دائما الى روابى فلسطين وآجامها وتلالها وخمائلها ، فيتذكر تارة أباه فى أريحا ، وتارة أخرى يتمثل وليدا فى (رام الله) •• أو تتراءى له طريق •• (بئر سبع) !**

ولكن فى عيد الميلاد من هذه السنة قدم اليه أستاذه « جيرالد جوتز » المجلد الأول من مذكرات شاتوبريان ، بمناسبة زيارته السابقة لسان مالو حيث ولد الكاتب العظيم وحيث زار مع ماريان ضريحه ، وقال له :

ـ لقد كان شاتوبريان غلاما يشعر بوحشة ووحدة عظيمتين ، وكان مرهف الحس مشبوب الخيال • وقد يروق لك أن تتعرف على معالم طفولته وصباه ، وسترى كيف كان أبوه

القاسى يرغمه على النوم بمفرده فوق قمة برج من أبراج القلعة العتيقة • وكان الشائع بين الناس أن ذلك البرج تسكنه الأشباح والأرواح الشريرة • ولا سبيل للوصول الى قمته الا عن طريق مشارف يعشش فيها البوم الذى يتطاير فى الظلام وهو يرسل نعيقه الكئيب الرهيب مختلطا بهزيم الرعد وزمجرة رياح الشتاء وهدير الموج فى البحر الثائر !

والحقيقة أن جيرالد أثار اهتمام أنطون بالكتلب عن طريق اثارة خياله ، فراح الفتى يقرأ الكتاب بنهم عظيم • **ولم يستجب كثيرا لما قرأه فى تلك الصفحات من شدة حنين « فرانسوا رينيه شاتوبريان » الصغير الى الحب الانثوى ، فما كان هذا الحنين ليجد صدى فى نفسه** ، ولكن مخاوف الغلام الصغير ، وخجله ، وتردده ، وشكوكه ، وجدت صدى عظيما فى نفس الفتى العربى المغترب ، وكذلك الاحساس بالعبء الباهظ الذى يلقيه على كاهله الواهن هذا العالم غير المفهوم !

وقرر أنطون أن يذهب مرة أخرى يوما ما الى (بريتانى) فيزور قلعة « كومبيرج » ويعبر تلك المشارف الرهيبة التى اجتازها فى الظلام ـ ليلة بعد ليلة ـ ذلك الفارس الفرنسى الصغير « شاتوبريان » وهو يقاوم الفزع والارتياع • وأفضى أنطون بهذه الرغبة الى أمه ، فوعدته بأن يذهبا الى هناك فى عطلة عيد الفصح ، ثم تأجلت الرحلة الى عطلة الصيف ، ولكن الظروف حالت دون تنفيذ هذا الوعد على نحو أو آخر • ولم يضر ذلك أنطون كثيرا ، لأنه تجاوز مرحلة ذلك الكتاب الى كتب أخرى استأثرت بتفكيره • فقد اهتم بكتب المغامرات الحقيقية والرحلات ، ومن أهمها رحلة جزر الهبرايد للدكتور جونسون ، وقد استعار هذه الكتب من مكتبة « جيرالد جونز » ، ثم نقب فى مكتبة جده عن كتب أخرى فوجد كتابا عنوانه « سعيد

* * *

الصياد » بقلم « بكثول » • وسعيد هذا رجل شجاع لم يتردد فى أن يموت شهيد الاسلام على صورة لم يتمالك أنطون نفسه من الهتاف لها بحماسة عند الفراغ من تلاوة قصته • وسأل أنطون عن هـــذا المؤلف « بكثول » ومن عساه يكون ، وهو يجد فى كتبه وصفا صادقا لأحوال فلسطين منذ أواخر القرن الماضى ، فقال له جده :

ـ انه ابن قس انجليزى ، وقد أحب الشرق العربى وفلسطين وسورية واعتنق الاسلام وتعلم العربية وتفقه فيهـــا وترجم القـــرآن الى الانجليزية • وأدرك أن الصهيونيــة لا يمكن أن تنتعش فى فلسطين الا تحت حماية الحراب الانجليزية • وقــد كتب ذلك صراحة فى سنة ١٩٢٩ • وقد لاقت قصته « سعيد الصياد » رواجا كبيرا بين القراء الانجليز ، ولكنه صار الآن طى النسيان • وهو بلا شك من أعرف الناس بأحوال العرب وأكثرهم حبــا لهم • ولكم أثاره الظلم الذى يصب على عرب فلسطين صبــا بالتعــاون المتواطىء بين الحـــكم الانجليزى والصهيونية • وقد مات الرجل فى ســـنة ١٩٣٦ ، وكانت ترجمة القرآن آخر أعماله ، وكان القدر رحيما به حين جنبه عذاب مشاهدة النكبة التى حلت بفلسطين •

قصصه الانجليزية فلا تعجبها على الاطلاق • و «سعيد الصياد» فى نظرها أحسن ما كتبه عن بلاد العرب ، لأن ذلك الكاتب لم بالبسطاء والأميين ، فقد كان يفهم روحهم وعقليتهم جيدا •

وكانت تعجب كثيرا بكتبه عن الشرق وبقصصه الشرقية ، أما

واكتشف أنطون أن أمه تعرف « بكثول » وقرأت كتبه ، يكن يعرف شيئا عن المتعلمين العرب ، وكانت كل معرفتـــه

وكان المفروض بعد انتهاء أنطون من المدرسة الثانوية ألا يدخل مدرسة العلوم الاقتصادية لدراسة العلوم الاجتماعية الا بعد تمضية سنة فى التمرين العملى على الخدمة الاجتماعية ، **ففكر في أن يمضي تلك السنة من التمرين والخبرة فى المملكة الأردنية بين مواطنيه اللاجئين ، كى تكون هذه السنة فرصة له للاجتماع بصديقه وليد ، ولعلهما يستطيعان فى غضون تلك السنة التسلل الى بئر سبع ، وليكن بعد ذلك ما يكون ٠**

وأفضى بفكرته الى جده الذى قال له :

– لست أرى ما يمنع من ذلك ، بشرط أن توافق أمك على هذا السفر بطبيعة الحال ٠ فانها قد لا تميل كثيرا الى فراقك سنة كاملة ٠

– ولكنها ستسمح لى بالسفر اذا أنت حبذت فكرتى ، وقلت لها ان أبى كان حريا أن يقرها لو كان على قيد الحياة ٠ أليس هذا رأيك يا جدى ؟

فنظر روبرت ملبى الى وجه حفيده المتلهف ثم قال :

– بلى ! أظن هذا ٠ فقد كان يريد لك أن تظل عربيا ، وان كان حريصا على أن تتلقى تعليمك فى انجلترا ٠ ولكنه من جهة أخرى ما كان يحب لك أن تهجر أمك ٠٠

– ولكنى سوف لا أهجرها يا جدى ٠ فلسوف أعود فى نهاية السنة وسأبقى هنا سنتين لتلقى المحاضرات فى الجامعة ٠ ثم أنها لا ترانى أثناء العام الدراسى الا مرة واحدة فى عطلة الأسبوع ٠ وفى بعض الأحيان تمر العطلة الأسبوعية من غير أن ترانى ، حين تكون مشغولة أو مسافرة لتسقط الأخبار ! أنا واثق انها لن تمانع ٠

– سنبحث الأمر كله يوم الأحد ٠ ولكن خبرنى هل فكرت فيما ستصنعه هناك فى الأردن ؟

فاحمر وجهه وقال :

- خطر لى أن أساعد فى ادارة معهد العميان ببيت لحم حيث يقيم صديقى أمين . واعتقد أن فى وسعك أن تمهد لى ذلك ، بما أن معهد بيت لحم تابع للجمعية التى تشرف على معهد يافا حيث كنت تعمل أنت فيما مضى . ولا سيما اننى أعرف الشىء الكثير عن العميان بسبب معاشرتى الطويلة لأمين كما تعلم .

- فكرة طيبة فعلا ، بل طيبة جدا . سأذهب الى مقر الجمعية وأتحدث اليهم فى هذا الموضوع منذ الآن ، فهذه المسائل يستغرق الانتهاء منها وقتا طويلا الى أن تتم الموافقة ..فهناك مستويات كثيرة للجان كما تعلم .

- شكرا لك . وثق انى مستعد للقيام بأى عمل هناك مهما كان صغيرا ، ولن أخذلك ، لأنى فى الحقيقة مهتم جدا بالعميان ولا سيما أن « أمين » سيكون معى طول الوقت . وسيكون فى وسعى أن أرى صديقى خالدا فى أوقات فراغى .. ألا ما أبدع هذا !

- ولكن ما الذى جعلك تفكر فى هذه الأمور كلها ؟ هل أصابتك نوبة أخرى من الحنين الى الوطن ؟

- أوه . ان المسألة فى مجموعها معقدة كما تعلم ، ويدخل فيها عدد كبير من العوامل ..

- مفهوم . مفهوم . ان فلسطين طبعا حياتك الحقيقية . ولقد كان فلسطين حياتى الحقيقية يوما ما . ثق انى سأفعل كل ما أستطيع لتحقيق هذا الأمل ان شاء الله !

- ان شاء الله ..

– ٥ –

جرى هذا الحديث فى حجرة الجلوس فى مساء من أمسيات نوفمبر الباردة ، والضباب يزحف من المتنزه العام متسللا الى داخل البيت على الرغم من النوافذ المغلقة والستائر المسدلة . وقد جلس مستر ملبى فى مقعده الوثير العتيق بجانب النار ، وجلس قبالته أنطون . أما «الزبيث» فكانت خارج البيت تحضر اجتماعا لاحدى اللجان المحلية التى تشترك فيها . ولذا أتيح لأنطون فى هذا المساء أن يسترخى فى جلوسه كما يشاء وان يطعم نيران المدفأة بكتل من الخشب ليحول بينها وبين الخمود . **أما جده فهو على عادته معه لا يبدى اعتراضا على تصرف من تصرفاته ، بل يشعر انطون فى قرارة نفسه ان جده يضمر التشجيع له على أنواع السلوك التى تضيق بها جدته !** ولذا فهو يشعر بالألفة الشديدة وسكينة النفس حينما يخلو الى جده فى الدار على هذا النحو ، بينما جدته تقضى وقتها فى الخارج .

مسكينة هذه الجدة ! فهى من ذلك الطراز من الناس الذى تشعر انه يحبك أكثر بكثير مما تحبه ، وكنت حريا أن تحبه بمزيد من القوة والعمق لو ان حبه لك خفت حدته قليلا !

وتخيل انطون ان الجدة عادت من الخارج وان أول ما صنعته انها بددت تلك العتمة الحبيبة الى النفس ، وما تفيض به من حرارة وايناس ، فأوقدت المصابيح الشديدة وصاحت بهما فى استنكار كعادتها :

– لماذا تجلسان هكذا فى العتمة ؟ وهذه النار المتأججة ! ان الحرارة هنا شديدة لا تطاق !

وبسرعة يروح كل منهما يرفع الوسائد الصغيرة من وراء

ظهره ويعيدها الى مكانها المرسوم من حجرة الجلوس • أما الجدة فتتناول صحف المساء الملقاة حيثما اتفق فوق أحد المقاعد ، وسرعان ما « ترتبها » فى مكان خفى عن الانظار كالعادة !

ويعقب ذلك قرقعة مألوفة ، وصليل الأوانى الخزفية ، لأن الجدة تصنع الشاى • وبعد الانتهاء من صنعه ، تملأ قدر الماء كعادتها كل ليلة لاعداد الماء الساخن الذى تملأ به الزجاجات لتدفئة أسرة النوم •

وكالعادة كل ليلة أيضا ، تتوقع الجدة من انطون بعد تناول شايه وبسكويته ان « ينسحب » الى حجرته بعد أن يذهب الى المطبخ ليأخذ زجاجة الماء الساخن • ولكن الوقت لم يكن قد جاوز الثامنة مساء بكثير • **ولم تكن الجدة قد عادت بعد • وليس من المنتظر ان تعود قبل ساعتين • وفى وسعه هو وجده أن يتحدثا ما طاب لهما الحديث أو يصمتا ما طاب لهما الصمت ، فصمتهما مأنوس كحديثهما أو أشد أنسا • اما الجدة فلا تعرف للصمت معنى ، الا اذا كان المرء يطالع أو يكتب** • اما فى غير هاتين الحالتين فهى تنتظر من كل انسان أن يتحدث فى شىء ، أى شىء ، حتى ولو لم يكن ثمة ما يستدعى الكلام • ولهذا السبب أيضا كانت تستخدم الراديو أقل استخدام ممكن ، لسماع نشرات الاخبار على الخصوص والنشرة الجوية • أما الكلام فلم يخلق له الراديو ، وانما خلقت له ألسنة الناس !•• فى حين كان الجد ينتهز فرصة خروجها من البيت ليدير مفاتيحه ويتلمس البرامج الموسيقية الجميلة من بروكسل أو لكسمبورج • وما أشد ما كان يأسى على انه لا يستطيع التقاط اذاعات عمان والقاهرة !

وفى ذلك المساء كان مدار حديثهما عن سفر أنطون الى الأردن • وكلما أوغلا فى مناقشة الموضوع بدا لهما ممكن التنفيذ • وارتفعت روح أنطون المعنوية ، حتى أنه صاح :

– لم تبق الا سنة واحدة ! أتظن ياجدى انه سيكون فى وسعى بعد ذلك أن أحتفل بأعياد الميلاد فى بيت لحم نفسها ؟

– ربما . ولكن والدتك قد تستاء ويتأذى شعورها . ولا تنس أيضا موقف جدتك من هذا التفكير !

– آه ! لقد حظيت « ماما » بعيد الميلاد فى الكويت عندما راقها هذا !

– ولكنها لم تمكث هناك سنة كاملة . اسمع ! هيا بنا نتصل بها الآن تليفونيا ونحاول الاتفاق معها على المسألة مبدئيا ...!

وكانت ماريان فى شقتها الخاصة ، وقد أدهشها أن تتلقى حديثا تليفونيا من والدها ، وكان أول ما خطر لها أن سوءا أصاب أمها أو أنطون . ولكن والدها صرف عن ذهنها هذا الخاطر بالخوض مباشرة فى الموضوع :

– ماذا ترين فى قضاء أنطون سنة العمل التدريبى فى الأردن ، وربما كان هذا فى مدرسة المكفوفين ببيت لحم ؟

وأجفلت لأول وهلة ، ثم شعرت بضيق فقالت :

– وهل لابد لنا من البت فى هذه المسألة الآن ؟ لن تكون بنا حاجة الى ذلك الا فى السنة التى بعد التالية !

– هذه المسائل يستغرق تدبيرها وقتا طويلا ، والفكرة مستولية علينا أنا وأنطون .

– أهى فكرتك ؟

– بل فكرة أنطون . ولكنها تبدو لى فكرة طيبة .

– أتعنى انه هو الذى فكر فى هذه الخطة التى تبقيه بعيدا عن البيت سنة بطولها ؟

– انه ليس طفلا يا ماريان . ثم انه فى مقدورك عند القيام باحدى أسفارك الصحفية الى الشرق الأوسط أن تعرجى على القدس لتريه .

– لست أحب أن أذهب الى القدس مرة أخرى • وأنت تعرف شعورى لأنك أنت أيضا لا تحب هذا • فلماذا يريد أن يذهب الى هناك ؟ لقد كان الاتفاق فيما بيننا أن يقضى فى الأردن عطلة محدودة قبل أن يتسلم عمله الذى سيشرع فيه هنا • وينبغى أن يكون هذا حسبه •

– انه يشعر بالحنين الى وطنه ياماريان !

– ان وطنه فى الوقت الحاضر ها هنا !

– وهل نسيت انه ابن بطرس منصور ؟ ان وطنه فلسطين !

– لم يعد لهذا الوطن الآن وجود •

– لا • بل الضفة الغربية لم تزل قائمة ، حيث نابلس ، ورام الله ، وبيت لحم ، وأريحا ، والخليل • وفى امكان المرء أن يحن الى الجزء ، ان أعوزه الحنين الى الكل !

وعندئذ قالت ماريان فى صبر نافد : « ليس فى وسعنا أن نناقش هذا الموضوع عبر أسلاك التليفون ، فأبقه حتى أحضر يوم الأحد • »

– ولكن أنطون لن يواتيه النوم مالم يعرف أنك توافقين على فكرته من حيث المبدأ !

وتوسل اليه أنطون قائلا : « دعنى أكلمها ! »

فقال لها أبوها : « أنطون يريد أن يكلمك بنفسه • »

– أرجوك ياأماه أن تقولى نعم ! أرجوك !

– هل تكره انجلترا الى هذا الحد ؟

– أنا لا أكره انجلترا •• أنت تعلمين تمام العلم أنى لا أكرهها ! ولكنى أريد أن أرى وليدا وأمينا وعمى فريدا وسائر الأقارب • انى ان ذهبت اليهم فى نهاية العام القادم سأكون قد سلخت بعيدا عنهم أربع سنين ؟

– كثيرا ما يظل الناس بعيدين عن أوطانهم عشرين سنة ، أو ثلاثين ••• بل العمر كله أحيانا !

– لا أستطيع يا أماه ! هـذا فوق مقـدورى • لأموتن لو فعلت ! أرجوك ياأمى الحبيبة أن تقولى نعم !

وشعرت ماريان على الفور أنها خسرت الجولة ، فقالت : « ليكن • مادام هذا مطلبا عزيزا عليك الى هذا الحد • والآن دعنى أكلم جدك من فضلك • »

– أوه • أحبك يا أمى ! أحبك • أحبك !•• ها هو جدى •

وقالت ماريان لأبيها : « لعلك أدركت انى أنقدت لرغبته ، ولكننى غير راضية النفس • فأنا واثقة أنها غلطة •• »

– لست أدرى كيف يمكن أن تكون كذلك ياعزيزتى •

– دعنا من الكلام فى هذا الآن • وسأحضر للغداء يوم الأحد ان شاء الله •

– ان شاء الله • طابت ليلتك ياعزيزتى •

ووضع « ملبى » المسماع ، ونظر الى حفيده وابتسم كل منهما لصاحبه ، ثم قال ملبى : « سيكون كل شىء على مايرام •• انها فى الوقت الحاضر غير متحمسة للفكرة ، ولكننا سندخل الطمأنينة على نفسها يوم الأحد عندما تحضر • »

فصاح أنطون : « بل هذا رائع • رائع جدا ! كم كنت أتمنى لو جئتم معى ، انت وماما وجدتى •• فنعود كلنا معا الى الوطن •• »

أما ماريان فلم تتحرك من جوار التليفون بعد أن وضعت المسماع ، بل دفنت وجهها فى يديها ، واندفعت تبكى ••

- ٦ -

أما « **الزبيث** » فكانت صريحة فى معارضتها لمشروع سفر أنطون الى الأردن • وآذى شعورها أن يفكر أنطون مثل هذا التفكير ، وأغضبها أن يكون جده روبرت ضالعا معه فيه ، وأن تكون ماريان من الضعف بحيث لا تقف فى وجه هذا المشروع وقفة حاسمة ! •• لقد كانت الجدة موقنة أن أنطون لو عاد الى الأردن وقضى هناك سنة كاملة فسيكون فى ذلك القضاء المبرم على كل مابذل فى السنوات الاربع من جهود فى سبيل تأقلمه بالطباع الانجليزية ، وسيتعين الابتداء فى تلك الجهود من جديد ، حينما يرجع الى انجلترا • **ولكن هذا الذى ساورها لم يستطع أن يغير من الوضع شيئا ، لأن الأم والجد كليهما لم يجدا غضاضة فى شعور أنطون بعروبته وحرصه على تجديدها ، ولا تثريب عليه ان هو غلب عروبته الموروثة عن أبيه على ميراثه عن أمه •**

وكانت الجدة تتمنى لو أنه أبدى شيئا من الاهتمام بالفتيات وقد صار الآن فى عامه الثامن عشر • فمن أعجب العجب أن شيئا من أعراض الفتيان فى تلك السن لم تظهر عليه • وهو أمر يدعو للرثاء ، لأنه لو تعلق بفتاة لطيفة لاستطاع هذا الهيام أن يثنيه عن الرحيل الى الأردن !•• وداعبها الأمل فى أن يلتقى فى حفلات عيد الميلاد القادم التى يقيمها زملاؤه فى المدرسة بفتاة لطيفة من هذا الطراز الجميل الرقيق المهذب • ولعلها تكون شقيقة أحد هؤلاء الزملاء •

ولكن عيد الميلاد أقبل ثم ولى من غير أن يجد فى الأمر جديد•

ولم يشعر قلب أنطون بشيء من الخفقان ، اللهم الا خفقان اللهفة والتمنى أن يقضى عيد الميلاد التالى فى بيت لحم !

لكن الجدة لم تيأس ، بل تمنت حين يأتى الربيع ويكون أنطون قد اقترب من تمام الثامنة عشرة ، أن تتحرك فيه نوازع الحب .. نعم ، فلابد أن يقع فى هوى فتاة ما عما قريب ، سيما وأن منظره وفتنته لابد أن يجتذبا الفتيات الانجليزيات ، ومن طبائع الأشياء أن يستجيب قلبه الشاب لمحاسن احداهن !

وراحت مسز ملبى تطيل التفكير فى تلك الفتاة الموعودة ، وفى مرجوها أن تكون ابنة احدى الأسر التى يعرفها آل ملبى ، وأول صفاتها أن تكون « سيدة » بمعنى الكلمة ، يلتقى بها أنطون فى احدى الحفلات العائلية الصغيرة ، أو احدى حفلات الكنيسة ، أو احدى الأسواق الخيرية التى تقيمها الجمعيات الكثيرة التى تعنهم فيها مسز ملبى بنشاطها الكبير . **ولسوف ينشأ الحب بينهما - فيما تتخيل - من أول نظرة . وعلى مهل تتطور العلاقة بينهما الى خطبة . ثم بعد سنة أو سنتين يعقد قرانهما فى الكنيسة . وسيكون حفلا بهيجا لن تدخر الأسرتان وسعا ولانفقة فى اضفاء الأبهة والمرح عليه .** وفى الوقت المناسب سيرزق العروسان الشابان بطفلين أو ثلاثة . وهكذا يستقر أنطون بعد قلق ، ويخلد الى حياة انجليزية بمعنى الكلمة ، ويتبخر من ذهنه كل أثر لخيالات الصبا التى تحفزه للتفكير فى العودة الى وطنه العربى !

ولما لم تستطع مسز ملبى الخوض فى حديث هذا الحلم العزيز عليها مع زوجها روبرت ، انتهزت أول فرصة ففاتحت ابنتها ماريان فى ذلك . ولكن ماريان أم وليست جدة .

فلم تكن متعجلة مثل أمها على أن يصل ابنهـا ـ وهو فى السابعة عشرة من عمره ـ حباله بحبال فتاة تستأثر به مدى العمر • وقالت لأمها بصريح العبارة ، ان الطبيعة ستأخذ مجراها فى أوانها المناسب من غير أن تعنيا بنفسيهما بالقلق والتفكير فى الأمر قبل الأوان •

وكانت لهجة ماريان حازمة ، ولا تخلو من نفاد الصبر والضيق • ولعلها كانت مدركة ـ فى أعماق سريرتهـا ـ أن نقصان الجانب الغزلى عند ابنهـا أنطون ، راجع فى المحـل الاول الى أن قلبه مشغول بحب كبير أخذ عليه مجامعـه • **وذلك الحب ليس موضوعه امرأة ، وانما موضوعه حلم مسرف فى الخيال ، ولكنه مسرف فى الجمال والسحر • انه حلم العودة الى الوطن الذى تسرى دماؤه فى عروقه وخلاياه !**

***

ولكن شاء القدر عقب هذا الحديث بين الجـدة والأم بوقت قصير ، أن يتعلق أنطون بفتاة كان يقابلها منذ بضعة أسابيع، فى الخفاء !

وكانت ظروف التقائه بها حرية ان تروع جدته ، لأنه لم يتعرف بها فى كنيسة ولا حفل ولا جمعية ، بل تعرف بها فى •• الطريق العام !

ففى ذات يوم من أيام أغسطس الرطبة الحارة ، شـعر أنطون بعد الظهر بالاختناق ، فوضع فى جيبه كتابا من كتب الاقتصاد ، وانطلق الى المتنزه العام ، ينشد نسمة عليلة من الهواء • وكان عدد الرواد قليلا فى تلك الساعة ، وصف المقاعد الخشبية المواجهة لطاحونة الهواء خاليا ، فتخير المقعد الأوسط ، وجلس عليه مسترخيا بضع دقائق ، ثم أخـرج

كتابه من جيبه ، وشرع يطالعه فى غير استغراق ‥ واذا به يسمع صوتا انثويا يقول له :

– عفوك !

فرفع بصره ، واذا بفتاة سوداء الشعر ترتدى ثوبا عليه رسوم أزهار فاقعة اللون ، تقف بجوار مقعده . ولفت نظره كثرة الكحل فى عينيها ، وغزارة أصباغ شفتيها ، وبروز صدرها الناهد بروزا غير مألوف فى بيئته ، تحت صدار ثوبها الضيق .

– عفوك ! هل هذا معطفك الواقى من المطر ؟

وأشارت الى معطف واق من المطر من البلاستيك أحمر اللون ، فى كيس من البلاستيك أحمر اللون أيضا . ولم يكن قد ألقى اليه باله حين جلس ، فقال لها : « لا . انه ليس معطفى . »

– اذن فهو معطفى أنا .

وابتسمت ابتسامة مشرقة ، فشعر بحدة ارتباكه وقد خفت ، فقد ذكرته هذه الابتسامة بابتسامة ابنة عمته نادية . واستطردت الفتاة : « لقد تركته هنا وذهبت أتمشى قليلا عند البحيرة ، وفجأة تذكرت أنى نسيته ، فعدت . ولكنى عندما رأيتك جالسا خشيت ألا يكون هذا هو المقعد ، وأن يكون المعطف لك . فما أشد انتشار هذا النوع من معاطف المطر الآن . »

– ان لدى معطفا منها بالفعل . ولكنه ليس قرمزيا ، بل لونه أزرق داكن . ولكنى لم آت به معى .

وجلست الفتاة على المقعد ، وبعد لحظة صمت قالت له :

– لست أحسبك انجليزيا .

– أمى انجليزية .

ــ ولكنى أحسب أباك اسبانيا ٠

ــ لا ٠

وأخرجت من حقيبة يدها البيضاء علبة سجائر وقداحة ، وبعد أن أشعلت سيجارتها قدمت اليه العلبة ، فقال لها : « شكرا لك ٠ أنا لا أدخن ٠ »

ومدت يدها الى الكتاب ، فلما قرأت عنوانه العلمى بدا على محياها الاستهوال ، وأخذت تحدثه عن عمله ، فلما عرفت أنه طالب بالمدارس الثانوية ويهم بدراسة العلوم الاقتصادية والاجتماعية ، زاد عجبها ٠ وعرفته باسمها : « اسمى روزا روزادو ٠ »

ــ اسم جميل ٠

ــ ان جدودى أسبان ، وهذا هو السر فى اسم روزادو ٠٠

ــ وأنا اسمى منصور ٠ أنطون منصور ٠

ــ ياله من اسم ! أهو فرنسى ؟

ــ بل عربى !

ــ عربى ؟! من أى البلاد أنت اذن ؟

ــ من فلسطين ٠

فأطفأت سيجارتها ثم قالت : « ولكنك قلت ان أمك انجليزية ٠ فأنت اذن نصف عربى فقط ! »

ــ وهل هذا يعتبر فى نظرك علامة سيئة أو حسنة ؟

ــ لست أبالى بجنسيات الناس ماداموا ظرفاء ٠ ولكنك قد قضيت هنا فيما يبدو زمنا طويلا ٠

ــ أربع سنوات ٠ فقد فقدت أسرتى كل شىء تقريبا عندما دخل اليهود (اللد) فى يوليو سنة ١٩٤٨ ٠ وبذلك خسرنا بيتنا وبساتين برتقالنا ورأس مالنا وكل شىء ٠ وقد قتلت هذه الكارثة أبى ٠ كنا قد مضينا فعشنا فى (أريحا) سنة ــ فلنا فيها بيت وضيعة ــ ولكن قلب أبى كانت قد

حطمته الصدمة ، فلم يلبث أن مات .. وجئت أنا مع أمى الى انجلترا .

– يؤسفنى جدا أن يحدث لكم هذا .

– شكرا لك . ولكن دعينا من هذه الأحاديث المحزنة ، ولنتحدث قليلا عنك . ماذا تفعلين هنا فى المتنزه وحدك ؟

– وحدى ؟ ولماذا لاتخرج الفتاة للنزهة وحدها ؟

– لست أدرى . ولعل السبب أن الفتيات فى بلادى لا يتجولن فى الخلوات وحدهن . ومع هذا لا أعتقد أن فتيات انجليزيات كثيرات يذهبن الى المتنزهات بمفردهن .

– وما أدرانى . بعضهن يفعلن ذلك ، وبعضهن الآخر لا يفعلنه . وكل شىء يتوقف على مزاج الفتاة وشخصيتها ، وحالتها العصبية . وأنا شخصيا آتى دائما الى هنا فى الأيام التى يغلق فيها المتجر أبوابه مبكرا لأستنشق شيئا من الهواء الطلق ، لأنى أقضى أيام الأسبوع داخل المتجر محرومة من نسمة منعشة . فوالدى يدير متجرا لملابس السيدات ، مع أفراد أسرتنا : أبى يشرف على الجانب المالى والتجارى ، وأخى على عمليات الشراء ، وأمى على التعديلات التى تطلبها العميلات ، وهى لا تبارح الجزء الخلفى من المتجر . أما أنا فأقوم بالبيع فى المتجر بمفردى .. لقد غادرت المدرسة عندما بلغت الخامسة عشرة ، **ولست أدرى كيف تطيق أنت البقاء فى المدرسة حتى هذه السن ؟!**

– اننى أحب الدراسة .

– أما أنا فأحب الحياة !

وضحكت ، ووضعت ساقا على ساق ، فانحسر ثوبها الضيق القصير عن ركبتيها انحسارا شديدا ، واستطردت :

– وليس المرء فى حاجة الى المدارس كى يمارس الحياة . فهى فى حد ذاتها مدرسة كبرى .

ـ لست أدرى ماذا تعنين بالحياة ؟ نحن جميعا نحيا الى أن نموت !

ـ لا تصدق هذا الكلام ! ان بعض الناس لا يحيون بل يتخبطون هنا وهناك وهم أنصاف موتى !

ـ ما هى الحياة اذن فى رأيك ؟

ـ يالك من شاب مضحك ! ان الحياة الحقيقية هى التمتع بالمباهج .. وأن تشبع رغبات شبابك . وهذا شىء تعرفه أنت جيدا بالطبع !

ـ **المشـــكلة الكبرى أن هـــذا الشىء بالذات هو الذى لا أعرفه !**

وبدا عليه الارتباك لحظة ، ثم ابتسم فجأة وقال باندفاع :

ـ **عليك أنت أن تعلمينى !**

فابتسمت ونظرت اليه نظرة غزل وتدلل ، وقد اطمأنت الى أن الحديث قد انحرف الى المستوى الذى كانت تنشده ، **فراحت تتقاذف معه أطراف الكلام ، كما يتقاذف اللاعبـان كرة (البنج بونج) .. فكان يلتقط الكرة أحيانا ، وأحيانا أخرى يفلتها** ، غير أن هذا الأخذ والرد اسـتغرق وقتا طويلا جدا .. ثم نظر أنطون الى ساعتـــه وعجب لتأخره وعدم احساسه بمرور الوقت ، وقال لها معتذرا عن عدم استطاعته البقاء :

ـ نحن نتعشى فى السابعة

ـ وأين تقيم ؟

فأخبرها بعنوانه ، واقترحت عليه أن يسيرا عبر المتنزه فى ذلك الاتجاه ، الى أن يصلا الى محطة السيارات العامة . ونهضا ، فحمل لها مظروف معطفها ، وسارا فوق الحشائش النامية ، والفتاة تتهـادى بجواره فوق كعبيهـــا العاليين ، وأردافها الممتلئة ترتج تحت ثوبها الضيق .

وكان كثيرا ما رأى مثيلاتها فى الأفلام ، ولكن لم يخطر بباله أنه سيسير بجوار احداهن فى يوم من الأيام ! وكان احساسه بها غريبا ، لأنه لم يسر بجوار فتاة من أى نوع من قبل ، حتى ولا بنات عمته !٠٠ وعجب ماذا عسى أن يقول « لندلى » لو أنه رآه ٠ ثم تساءل عن سنها ، وخطر له أنها تقاربه فى العمر ٠٠ وأحب أن يعرف على وجه التحديد ، فسألها :

– متى عيد ميلادك ؟

– فى يونية ٠ شهر الورد ٠ ولهذا سمونى روزا ٠ وأنت ، متى عيد ميلادك ؟

– فى أكتوبر ٠

وأراد أن يستدرجها ، فاستطرد : « فى أكتوبر القادم سأتم الثامنة عشرة ٠ »

– اذن فأنا أكبر منك بأربعة أشهر !

– عجبا ٠ لقد ظننتك أصغر منى !

– والمضحك أننى ظننتك أكبر من سنك الحقيقية ٠ حسبتك فى العشرين ٠ ولذا عجبت لأنك لم تزل تلميذا فى المدرسة ٠

ووصلا الى محطة السيارات العامة ، على الطريق الرئيسى المجاور للمتنزه ٠ وفى فترة الانتظار خطر له أن يسألها متى يقابلها ، ولكنه خجل وسكت ٠ فلما أقبلت السيارة العامة عليهما ، ولم يقل شيئا ، قالت له : « **ما رأيك فى أن نلتقى مرة أخرى ، مساء الجمعة ، فى منتصف التاسعة٠٠ فى نفس المكان ؟**

– واذا كان الجو ممطرا ؟

– فى هذه الحالة يا فتاى العزيز ندخل أى دار للسينما !

وغمزت له بعينها غمزة تواطؤ ، فاحمر وجهه ودق قلبه دقا عنيفا ، وقال : « ما أحب هذا الى نفسى !•• لقد كنت أفكر فيه ولكنى لم أجسر على التصريح !! » •

وقفزت الفتاة الى سلم السيارة العامة بكعبها العالى وثوبها المحبوك ، ثم جمعت شفتيها كأنها تقبله فى الهواء !

وفى طريق عودة أنطون عبر المتنزه ، وجد نفسه يعيش فى حلم ، وقد تبخرت من عقله كل موضوعات الاقتصاد السياسى التى كان مشغولا بها من قبل !•• وحلت محلها كلمات الفتاة عن الحياة ، والاستمتاع بالهوى ، وقضاء لبانات الشباب •• وان معظم الناس يتخبطون فى الدنيا أنصاف موتى !•• وخيل اليه أن تلك كانت حاله الى أن التقى بروزا التى ستعلمه كيف يحيا !

ولما وصل الى البيت ، وجد جده فى الحديقة الأمامية الصغيرة منصرفا الى العناية بأشجار الورد القليلة • فقال له الجد معاتبا : « لقد تجاوزت الساعة السابعة • »

ـ انى آسف جدا ياجدى ، ولكنى لم أفطن لمرور الوقت •

ـ وما هذا الذى بيدك ؟

وعندئذ فقط فطن أنطون الى أنه لم يزل يحمل بيده معطف الفتاة ، فقال بارتباك : « لقد وجدته فوق مقعد بالمتنزه • »

ـ ولكن ما هو ؟

ـ انه معطف مصنوع من البلاستيك • معطف واق من المطر ، من الطراز الذى شاع كثيرا فى المدة الأخيرة •

فقال جده باشمئزاز : « معطف قرمزى ؟! كان من المستحسن على كل حال أن تمضى به الى مركز الشرطة • فلا تنس أن تفعل ذلك غدا • »

ـ بل سأذهب به الى هناك بعد العشاء مباشرة •

وبعد العشاء مباشرة مضى أنطون بالمعطف القرمزى الى « لندلى » ، فقد كان متلهفا أشد التلهف على مكاشفته بالمغامرة العجيبة التى واتاه الحظ بها ، وابتدره بقوله : « **احتفظ لى عندك بهذا الشىء الى يوم الجمعة .** »

— ما هذا ؟

— كنت أتنزه هذا المساء مع فتاة ، ووجدته فى يدى على سبيل الخطأ بعد انصرافها ، ولا أستطيع أن آخذه معى الى البيت .. فجدى وجدتى كما تعلم .. ويوم الجمعة سألقاها مرة أخرى فأرده اليها .

وحملق لندلى فى وجهه ، ثم قال : « هل قلت حقا ما خيل الى أنك قلته ؟ »

فابتسم أنطون ابتسامة عريضة وقال : « لكل شىء أوان كما تعلم . »

— وأين عثرت عليها ؟

— أنا لم أعثر عليها . هى التى عثرت على وأنا جالس على مقعد فى المتنزه العام أطالع كتابا فى الاقتصاد السياسى !

ثم اندفع خارجـــا ، وترك لندلى فاغر الفم ، والمعطف القرمزى — دليل المغامرة الخرافية — لم يزل فى يده !

- ٧ -

وبعد نصف ساعة من ركوبها السيارة العـامة ، كانت الفتاة التى دعت نفسها باسم « روزا روزادو » جالسـة فى حانة تروى تفاصيل مغامراتها بحماسة على مسامع صديقتها العزيزة « ألس ماير » • وكان للآنسة ماير هذه صدر بارز على غرار صدور نجوم السينما ، وعينان سوداوان يثقلهمـا الكحل ، وهى فى الخامسة والعشرين من عمرها ، أى أنها أكبر من صديقتها « روزا روزنبرج » - فهذا هو اسمها الحقيقى - بسنة واحدة • وتعمل « ألس » فى قسم الأشرطة والاسطوانات بمتجر لبيع أدوات الموسيقى ، وتخال نفسها مثقفة • وتأمل أن تتزوج من « لين » شقيق روزا الذى يشاركها فى الميول الثقافية والميول الصهيونية ، وقد تعرفت اليه عنـدما حضر لشراء بعض الاشرطة والاسطوانات • **وكان العامل الأكبر فى جاذبيته بالنسبة لها انه يحلم بالهجـرة الى (تل أبيب) قلب الصهيونية النابض ، فلم يكن فى ذهنها شىء أعز لديها من الرحيل الى « الوطن » ، الى « اسرائيل » ، مع الرجل الذى تحبـه !**

ومن أسف أن والدى « لين »كانا لا يشاركان ابنهما أحلامه الصهيونية ، فقد ولدا ونشآ فى لندن ، ويعتبران كل بلد غير انجلترا أرضا أجنبية فى نظرهما ، والقومية فى اعتقادهمـا شىء ، والدين شىء آخر ، وقصارى نظرهما الى نفسيهما انهما لندنيان يدينان بالعقيدة الموسوية •

وأما ابنتهما روزا فلم تكن تعير هذه المسألة اهتماما ، فـلا الدين يعنيها ولا الوطن • ولندن فى نظرها مكان لطيف لأنها

ألفته . ولذا كانت « ألس » و «لين» يعتبرانها «خفيفة العقل» أو «ضحلة» ، ويأملان أن تحب يوما ما شابا صهيونيا متحمسا فتتحمس هى أيضا بالتالى للصهيونية . ولكنها الليلة وهى جالسة أمام ألس تحتسى جرعات كبيرة من شراب « الجين » القوى وتروى لها قصة اصطيادها لتلميذ غرير فى المتنزه العام ، سببت آلاما شديدة لصديقتها ، لأنها زادت ابتعادا عن الأمل المنشود لها ..

– لقد قلت له انى بلغت الثامنة عشرة فى يونية الماضى ، فقال لى انه كان يحسبنى أصغر من ذلك سنا ! وقلت له ان اسمى « روزا روزادو » وان أجدادى من أصل أسبانى !

– هل جننت ؟

– لو اننى قلت له ان اسمى « روزا روزنبرج » لكان من الجائز أن ينفر منى ، ولم أكن مستعدة للمجازفة بذلك . ولكنك لا تستطيعين تقديرهذا الاحساس لأنك لم ترى جماله، ولأنك أيضا لا تعرفين جنسيته !

فقالت الآنسة ماير بمرارة : « لعله عربى ؟ »

فنظرت اليها روزا بدهشة وقالت : « رباه ! كيف تسنى لك أن تعرفى انه عربى ؟ »

– عندما قلت لى انك ادعيت لنفسك تلك الدماء الاسبانية ، أدركت أنه فى الغالب من أصل له صلة ببلاد الاندلس . ولكن أهو عربى حقا ؟

– تقريبا .. انه فى الواقع فلسطينى . وقد روى لى كيف اضطروا – هو وأسرته – للخروج من بلدهم فى سنة ١٩٤٨ ، وكيف خسرت أسرته كل شىء بسبب ذلك ، وان هذه النكبة قضت على حياة أبيه بعد ذلك بوقت قصير . والحقيقة انى أسفت كثيرا له ..

ـ أسفت له ؟ انهم الذين بادؤونا بالحرب والعــدوان ! أنصحك يا روزا الا تذكرى شيئا من هذا لأخيك !

ـ لست أبالى • فهو جذاب جدا • وسوف أقابله مرة ثانية يوم الجمعة •

ـ آه ! انتظرى الى أن يكتشف انك يهودية !

ـ سوف لا أخبره !

ـ ولكنه لابد أن يكتشف الحقيقة فى النهاية •

ـ وهبى أنه عرف ، فمــاذا فى ذلك ؟ ليس من موجب اطلاقا فى نظرى للعداء بين اليهود والعرب !

ـ لا تكونى بلهاء الى هذه الدرجة يا روزا ! لا تقــابليه بعد اليوم • **فانه ـ عاجلا أو آجلا ـ سيكتشف أنك يهودية ، وعندئذ سينقلب حبه لك الى كراهية ومقت • ثم ما جدوى هذه المغامرة على كل حال ؟**

ـ ماذا تعنين ؟

ـ انه حديث السن جدا • وحتى لو لم يكن حديث السن جدا فلن يمكنكما الزواج على كل حال !

ـ ومن الذى يفكر فى الزواج ؟ انى أريده صاحبا وحبيبا ألهو وأتمتع بشبابى معه بعض الوقت • وهذا كل شىء ! ثم أنه صارحنى باعتزامه الذهاب الى الاردن فى نهاية السنة • آه لو رأيته ! أنه لطيف بصورة لا يتخيلها العقل •• وساذج جدا • وبرىء • **واعتقد أنه لم يسبق له تقبيل فتاة فى حياته كلها ! تصورى انه قال لى ان على أن اعلمه كل شىء عن الحب ، وعن الحياة المرحة اللذيذة ؟ !**

وضحكت روزا فى سعادة ، وأردفت : « وأراهنك على انه سيتعلم بسرعة فائقة • فهو يبدو ذا استعداد هائل فى هذه الناحية •• فشكله يدل على ذلك » •

– يدل على ماذا ؟ على الذكاء ؟

– اوه ٠٠ بل على الموهبة الجنسية !

فقالت لها ألس محذرة : « ستزجين بنفسك فى المتاعب يوما ما من غير أن تشعرى » ٠

– ولماذا ؟ لقد حظيت بالاتصال بفتيان كثيرين جدا من قبل كما تعلمين ٠ وبعضهم كانوا من ذوى الخبرة الواسعة جدا فى هذا الميدان ، ولكنى كنت اعرف دائما متى أوقفهم عند الحد الذى اريده أنا !

– آه ! ان الفتيان المجربين – كما تسمينهم – جانبهم آمن من جانب هؤلاء السذج المبتدئين ٠ لأن المجرب لا يندفع بجهل وحماسة فائقة كالساذج ٠ والمسألة كلها فى جملتها ذات طابع جنونى فى نظرى ٠ فما أكثر الفتيان اليهود من حولك الذين تستطيعين الاستمتاع معهم ، وهم أولى بالاستمتاع بك من هذا العربى ٠ ماذا مثلا عن ذلك الفتى الذى التقيت به فى المرقص يوم السبت الماضى ورقص معك طول الوقت ؟ ما اسمه ؟

– دافيد ماركس ! أنا لا أريده.فهو مغرور أكثر مما ينبغى، ويخيل اليه ان كل فتاة واقعة فى غرامه ٠ وهذا هو السبب فى أننى رفضت ان اعطيه موعدا لأخرج معه ٠ **ولكن هذا الفتى يختلف عنه فى كل شىء ، فهو خجول ٠٠ ولكنى سوف أعلمه الجرأة فى الغرام !**

– هذا ما يخيل اليك ! ولعله هو الذى سيعلمك درسا لا تنسينه !

ولمعت عينا روزا ، واكتسى وجهها بابتسامة مشرقة وقالت : « آه ! كم سيكون لذيذا أن أتعلم منه اذن ! » ٠٠ وبعد لحظة تنهدت واردفت : « انه جميل ! ظريف ! فاتن ! ولكنك لا تدركين هذا لأنك لم تريه ٠ عدينى أنك لن تخبرى « لين » ٠ عدينى ! »



– آه ! انتظرى الى أن يكتشف انك يهودية !
– سوف لا أخبره !

ـ لا تنزعجي · سوف لا أخبره · ولكن هذا لا يغير من الواقع ، وهو أن المسألة كلها ليست على ما يرام · وستندمين عليها يوما ما ·

ـ أندم ؟ ولماذا أندم ؟ أنا انوى أن احظى بمتعتى معه · ولن يحول بينى وبين هذه المتعة أحد !

***

وفى الموعد المحدد ، يوم الجمعة ، وصلت الفتاة الى المكان المعهود ، فاذا أنطون جالس ، والى جواره دراجة ! وعندما أبدت دهشتها بصددها ، صارحها بأنه وجد عقبات فى سبيل الخروج من البيت ليلقاها ، اذ قال بعد العشاء انه يريد التوجه الى بيت مدرسه الخاص السابق برهة هذا المساء ليستوضحه بعض نقاط النظرية الاقتصادية ، واذا بجده يقول على الفور انه يريد أن ينتهز هذه الفرصة للتنزه معه على قدميه بعض الوقت فى ذلك الاتجاه ، فلم يجد بدا من ان يزعم انه سيذهب على دراجة ليمر أولا ببيت زميله لندلى الذى قضى معه فترة العطلة السابقة فى سويسرا ·· واضاف انطون :

ـ وكان هذا صحيحا يا روزا ، لأنى كنت قد أخفيت عنده معطفك الواقى من المطر ، ولابد لى من احضاره · وكل ماهنالك انى لم أكن عازما على الذهاب بالدراجة ، بل بالسيارة العامة ·

وتناولت روزا معطفها من يده قائلة : « ولكننى لا أفهم لماذا اخفيت المعطف عند زميلك ؟ »

ـ لأنى لو أخذته الى البيت عندنا لكان على ان اجيب عن عدة أسئلة : فأذكر لجدى وجدتى كيف تعرفت بك ، وكيف اننا سنتقابل مرة أخرى ، وهى اسئلة لا احبها ·

فاستاءت روزا بعض الشىء ، وقالت بامتعاض : « أليس فى وسعك أن تغادر البيت اذن من غير أن تقول لهما الى أين أنت ذاهب بالضبط ؟ »

– ليس هذا سهلا ، لأنهما يحبان بطبيعة الحال ان يعرفا كل شيء ·

– انا شخصيا لا أقدم أى تفسيرات عن تحركاتى · حسبى أن أقول انى خارجة !

– لعلنى لو كنت أعيش مع أمى لم اكن مضطرا لهـذا ، ولكن جدى وجدتى من الطراز القديم كما تعلمين ·

– يبدو هذا ·· أرى أن السماء ستمطر ··

وفتحت المظروف واستخرجت معطفها الواقى من المطر ، وساعـدها هو على ارتدائه ·· ثم قالت بتذمر : « **لولا أنك احضرت معك هذه الدراجة لكان فى وسعنـا ان ندخل دارا للسينما** » ·

– ليس فى وسعى على كل حال أن أتأخر فى الخارج الى موعد انصراف السينما ·

– لم يكن هناك اذن ما يبرر الحضور · أليس كذلك ؟

– أليس يكفى أن نتمشى قليلا ؟

فنظرت اليه نظرة محنقة ، ولكنها تقدمته صوب أجمـة الشجر الكثيفة فى ركن المتنزه · وكان الهواء ثقيلا ، ومحملا ببوادر مطر ، ووجدت روزا صعوبة فى السـير على العشب الكثيف بكعبها العالى وحذائها المكشوف ، لأنها كانت قد رتبت نفسها على قضاء الليلة فى ركن خلفى متوار من دار للسينما ، كى تحظى منه بما تشاء من العناق واللمسات الغرامية الساخنة ·

وتوغلت به بين الشجر ، ثم نظرت حولها وقالت له : « فى وسعنا أن نجلس هنا » ·

– ولكننى لا ارى مقاعد ··

– يعيب فى الجلوس على الارض ·· هكذا !

وبجوار شجرة بلوط صغـيرة جلست ، أو بمعنى ادق اضطجعت على الارض فوق كومة من الاوراق الجافة ، وأسند

أنطون دراجته الى شجرة بعيدة ثم جلس على الأرض منتصب القامة بجوارها ، **وهو يعجب كيف تقدم فتاة « محترمة » على شيء كهذا . فالمكان قذر ، وهناك مجموعات من النمل ..**

وبسرعة خلعت روزا صندلها ذا الكعب العالى وهى تقول بلهجة تأنيب :

– لقد كاد المشى يقتلنى .. والآن اقترب منى قليلا !

وقبل ان يتحرك كانت هى قد التصقت به وألقت برأسها على كتفه . ولكنه حسب أن كل ما ترمى اليه هو أن تتخذ من كتفه وسادة ، فلم يحرك ساكنا .. فقالت له فى اغراء : « ها أنت ترى المكان خاليا الا منا نحن الاثنين .. »

– فعلا ..

ولم يحرك ساكنا أيضا . وكانت تنتظر على الاقل – مهما كانت درجة براءته – أن يمد ذراعه فيطوق عنقها وينحنى فيقبلها . وانتظرت لحظة ، ثم قالت له بصوت جاد : «أليست لديك أية فكرة عما يصنعه الفتى بفتاة فى خلوة ؟ »

فارتبك امام هذا السؤال المباشر المفضوح ، وضحك ثم قال : « هذه مسألة جديدة تماما بالنسبة لى .. وكل ما يساورنى الآن أن انال منك قبلة .. ان كان هذا ممكنا ! » ، فرفعت وجهها اليه وقالت بهدوء : « ولماذا لا تنالها اذن ؟ »

فطوقها بذراعه بغير قوة ، وقبل خدها . وكاد يبتعد عنها وقد فرغ من « مهمته » تلك ، واذا بها تتناول وجهه بين يديها وتلتهم شفتيه التهاما بقبلة ضارية ، وقد دست لسانها بين شفتيه ، فكادت أنفاسه تلهث من الدهشة والمفاجأة ، واصابه دوار !

وأخيرا رفعت فمها عن ذلك المنهل الذى شربت منه بشراهة ، وقالت : « كم أنت لذيذ الطعم ! ولكنك طفل . طفل كبير ! »

– اوه . انا آسف جدا ان كنت خيبت ظنك .

وعبثت اصابعها داخل حقيبة يدها واستخرجت سيجارة أشعلتها وجذبت منها نفسا قويا ، ثم قالت له : « أهذه أول قبلة تنالها من فتاة ؟ »

– لم أقبل فتاة قبلك اطلاقا ٠

– ألم تحدثك نفسك بتقبيل فتاة ؟ !

– كلا ٠٠ الى ان التقيت بك لم أفكر فى ذلك ٠ لم يخطر ببالى ٠٠ فالحقيقة ان أمور حياتى كلها كانت مضطربة جدا منذ غادرنا فلسطين ٠

– أحسب هذا هو السبب فعلا٠لقد مرت بك تجارب سيئة.

– سيئة جدا ٠ فظيعة ٠ ولم تزل تتراءى لى الكوابيس الى اليوم حول هذه التجارب المروعة ٠

– ولكن هذا كله قد انتهى الآن ، وفى وسعك أن تريح أعصابك وتتمتع بحياتك ، وقد صارت لك صديقة !

فرد على ابتسامتها بابتسامة وقال : « نعم ٠ هذا شىء رائع حقا ٠ فانى لم أستطع منذ فارقتك أن أفكر فى أى شىء سواك ! »

– يجب اذن ان تفكر فى طريقة نجتمع فيها معا على صورة أوفق من هذه ، وأنسب ، وأدعى للانطلاق على سجيتنا٠مارأيك فى يوم الأحد !

فهز أنطون رأسه بوجوم ، وقال : « لا فائدة من المقابلات فى عطلة الأسبوع ، لأن أمى تحضر لدينا ويجب أن أكون بالقرب منها ٠ واذا لم تستطع الحضور مساء السبت ، ذهبت لمقابلتها فى المدينة بعد انتهاء الصلاة فى الكنيسة صباح الأحد ، ثم نخرج للنزهة وقضاء الوقت معا » ٠

– أتذهب الى الكنيسة ؟ هل أنت متدين ؟

– لست أدرى هل أنا متدين أم لا ٠ ولكنى أحب الذهاب الى الكنيسة ٠ ألا تحبين انت الكنيسة ؟

– أنا ؟ انا لست أرثوذكسية !
– طبعا ، فانت كاثوليكية ، لأنك من أصل أسبانى ٠
– أنا لست منتمية لأى كنيسة انتماء حقيقيا !
– لقد بدأ المطر يشتد ٠ يجب أن ننصرف الآن من هنا ٠
– نعم ٠ وأنا أيضا يجب أن أعود على كل حال ٠

ونهض وأنهضها ٠ وكانت متأكدة انه سينتهز فرصة التصاقها به هكذا عندما وقفت كى يقبلها ، مستفيدا مما تعلمه من قبلتها الساخنة ، ولكنه لم يفعل شيئا من ذلك ، وتركها حانقة واتجه صوب دراجته كي يحضرها ٠

وعند موقف السيارة العامة أعطته الفتاة رقم تليفونها ، وافترقا من غير أن يتفقا على موعد آخر ، فقد قال لها انه يجب أن ينصرف الى الدرس ، ثم هو لا يستطيع أن يتقيد من الآن بموعد لأنه لا يعرف متى سيكون الظرف مناسبا للقاء ، وقد اقترب الامتحان ٠٠

واتفقا على أن يتصل بها تليفونيا عندما يستطيع تدبير مكان وزمان مناسبين للخلوة السعيدة التى تحلم بها ٠٠

- ٨ -

وكان انطون يدرك تمام الادراك أن هذه الفتاة روزا ليست من الطراز الذى يمكن أن يلتقى به فى دوائر آل منصور أو آل ملبى • وهو يعلم تمام العلم أنها من النوع الذى تطلق عليه جدته وصف « السوقية » • أما أمه فلم يكن متأكدا ماذا عسى أن يكون رأيها • وخطر له فجأة أنه فى الواقع يعرف عن تفكير جدته أكثر مما يعرف عن تفكير أمه • فهو على علم بطريقة تأثرها بأشياء كثيرة ، أما أمه فخيل اليه انه لا يعرف عن رأيها فى معظم الأمور الا أقل القليل !

وقال لنفسه : « ليس فى وسعى أن أخبرهم ، لأنهم لن يستطيعوا فهم حقيقة الموقف •• « لندلى » وحده يستطيع أن يفهم ذلك لأنه يميل للفتيات وصحبتهن ، من كل نوع ، ولا يقيم وزنا على الاطلاق للمقتضيات الرسمية فى التقديم والتعارف وما الى ذلك • ولكن لندلى لا يحيط أسرته علما بمغامراته ، ويعمد الى الكذب والخداع فى علاقاته تلك ! »

روزا ! ما أحلاها، بشعرها الغزير الحالك السواد ،وعينيها السوداوين الواسعتين ، والابتسامة التى تذكره كثيرا بابنة عمه نادية • لقد كان فى هذه المقابلة خجولا مرتبكا ، ولكنه فى المرة القادمة •• لن يتهيب ، ولن يستغرب الموقف ، وسيبلى بلاء حسنا !

سيتصل بها تليفونيا فى الأسبوع القادم ويحدد معها موعداً ، ثم يذهبان معا الى السينما كما اقترحت هى • وفى

الظلام الدافىء الذى يكتنف قاعة السينما لن يشعر بالخجل الذى شعر به فى العراء . سيجلسان فى الصف الاخير وتتشابك أيديهما و .. و .. يتبادلان القبلات ! لقد رأى الكثيرين يصنعون مثل هذا فى السينما . **وكثيرا ما تباهى صديقه لندلى بأنه صحب فتيات الى السينما ولم يروا شيئا من الفيلم المعروض ، لأنه كان يمثل معهن فيلما خاصا جدا !!**

***

وعاد الى البيت فألفى جده جالسا بجوار النافذة المفتوحة مشغولا بمهمته الليلية التى يسميها « الانتهاء من قراءة التايمس » ، فلما رآه جده داخلا طوى الصحيفة وسأله : «هل تمكنت من استجلاء النقاط الغامضة مع مستر جونز ؟ »

– نعم . وشكرا لك . أين جدتى ؟

– فى الداخل تصنع الشاى .

– الجو حار جدا لا يصلح لتناول الشاى . ما أشبه هذا بجو اريحا الخانق .. لقد ارهقنى جدا ، **ولذا اعتقد أنى سآوى الى فراشى فورا ، ان لم يكن لديك مانع .. لأنى أشعر بصداع . ولابد أن الرعد هو السبب فيما اعانيه .**

فأجابه جده وهو يستخرج غليونه من جيبه ويشرع فى حشوه :

– ربما ..

***

وعندما أوى روبرت ملبى الى مخدعه بعد ساعة ، خاليا الى نفسه ، استلقى على فراشه وراح يحدق فى الظلام ، **مفكرا فى الشخصين اللذين رآهما يخرجان معا من الغابة الصغيرة وهو يتمشى هذا المساء .. وكان هذان الشخصان : تلك الفتاة ذات الشعر الفاحم والمعطف القرمزى الواقى من المطر ، وقد تأبط ذراعها .. ابن ابنته !**

كانت الفتاة تضحك له ، وكان انطون سعيدا منتشيا

بقربها ، حتى انه لم يلمح جده قبل ان يتوارى بسرعة وراء شجرة ، ثم يتسلل الى أقرب حانة فيطلب كأسا مزدوجة من الويسكى ، ليتغلب على المباغتة المذهلة التى منى بها ٠ وما ان تلاشى الشعور بالمفاجأة حتى حل محله شعور بالاستياء الشديد ٠٠ لماذا فعل به انطون هذه الفعلة ؟ لماذا كذب عليه منذ البداية فى شأن هذا المعطف القرمزى القبيح الذى زعم له انه وجده على أحد مقاعد المتنزه ؟ ولماذا ادعى انه حمله الى مركز الشرطة ؟ لعل الصحيح أنه حمله الى بيت زميله لندلى ، ثم استرده منه هذا المساء ، فقد قال انه ذاهب الى هناك عندما خرج اليوم ٠ **ولكن لماذا كل تلك الاكاذيب والخدع ؟ ٠٠ ان هذه أول مرة يشعر فيها بالاستياء والتأذى من حفيده٠وهاهو الآن يحملق منفردا بنفسه فى الظلام ويحاول أن يجد تعليلا لسلوك أنطون ٠ وبدأ ينتحل له المعاذير :**

ـ لم يكن فى وسع انطون أن يخبرنى بأمر هذه الفتاة ، لأنها قنيصة تصيدها من الطريق ٠ وهو فى قرارة نفسه يعلم انها شابة غير مناسبة له وغير لائقة لنا ٠ ولأنه يعلم ـ فيما لو أخبرنا ـ انه سيكون مضطرا لمكاشفتنا بكيفية تعرفه اليها ، ولن يكون ذلك مستساغا ٠

ثم شرع بعد ذلك ينظر الى هذه العلاقة فى ضوء عملى بحت :

ـ ولكن ماذا عساه يصنع مع مثل هذه الفتاة ؟ **انه فتى وسيم ، وما أكثر الفتيات اللواتى يتمنين مصادقته من بنات الاسر ، فى محيطه ومحيطنا ٠ وانه ليلقى الكثيرات منهن كل يوم ، فما حاجته الى التخفى فى الآجام والغابات مع هذه المخلوقة المبتذلة ؟**

وانتقلت أفكاره الى ابنته ، والدة انطون : « وماذا عسى أن تقول ماريان فى هذا لو أنها علمت به ! وهل ينبغى أن

تعرف ؟ انه لمن المستحيل مكاشفة ماريان واخفاء السر عن الزبيث .. **وان لم يكن من المستبعد أن تشجع ماريان ابنها على مثل هذه العلاقة - بصرف النظر عن كنه الفتاة نفسها وصفاتها - طمعا فى المباعدة بينه وبين فكرة قضاء سنة التمرين فى الاردن . ولعلها فى هذا على حق » .**

ومرة أخرى عاد الى علاقته هو بهذه المسألة : « ولكن لماذا أخفى أنطون على أنا هذه العلاقة ، ولو كلفه ذلك الاخفاء الكذب ، وأنا صديقه وصفيه الحميم ؟ .. هل أشعرته فى أى يوم من الأيام بما يدفعه الى الحذر منى واخفاء خصوصياته عنى ؟ أم لعل السبب أننى فى مقام والده بعد وفاة بطرس منصور ، ولذا فهو يستحى من مصارحتى بمثل هذه الشئون؟ ثم ما العمل الآن ؟ هل ألزم الصمت وأترك الأمور تجرى فى أعنتها ؟ أم أجابه الفتى بكل ما أعرفه ، وأقول له صراحة : « لماذا كذبت على ؟ لماذا خدعتنى ؟ ومن هذه الفتاة السوقية؟ وما هى نواياك حيالها ؟ » .. لا . لا . ان ذلك كله سخيف جدا ، فنحن الآن فى سنة ١٩٥٣ . حمانا الله وكان فى عوننا ! انه حكم الزمن .. وليس من الجائز احراج الفتى بهذه الصورة القاسية ، فذلك قد يدفع به الى علاقة أوثق بتلك الفتاة .. فبعد أن يكون مكتفيا بأحضانها فى الحديقة ، يندفع الى التقلب بين أحضانها فى الفراش ! **ثم ان ذلك من شأنه أن يسدل ستارا حديديا بينى وبينه الى الأبد . فمن الخير اذن أن ندع المسألة تأخذ مداها بدون تدخل .. ولنرقب وننتظر ما يتمخض عنه الغد .. من غير قلق ، على حد تعبير أبناء هذا الجيل .. : « دع القلق ... واستأنف الحياة ! » .**

- ٩ -

كانت « ألس ماير » مخلصة فى وعدها الذى قطعتـــه على نفسها بألا تبوح بسرها لروزا · ولكن من الأسرار نوعا معينا تدخل فى تكوينه « أحماض كاوية » ، تحفر لنفسها مسارب تتسرب عن طريقهـا من الخزائن التى تودع فيها داخــل السريرة ·

والحق أن ألس كانت فى حالة « انسجام » تام مساء ذلك اليوم من أيام السبت ، وهى جالســـة مع «لين» (شقيق روزا) فوق شرفة الفندق الواقع على شاطىء النهر فى (ريتشموند)، تحتسى كأسها الثانية من « الجين » ·· تلك الكأس الثانية التى تقول ألس دائما انها تجعلها فى حالة « انسجام » تام !

ومن عادة « لين » أن يأخذها فى سيارته الصغيرة فى نهاية كل أسبوع – فى حالة اعتدال الطقس – ويترك السيارة فى رحبة الفندق ، ويجلسان فى الشرفـة مطلين على النهـر ، ويشربان بضعة أقداح مترعة من الشراب القوى ، ثم ينتقلان الى قاعة المطعم بالفندق فيتناولان عشاء طيبا · **وكان من أهم ما يحبب « لين » الى « ألس » انه ينفق فى صحبتها بسخاء · وبعد العشاء يستقلان السيارة الى تــل (رتشموند) الذى تكسوه الخمائل ، وبه حديقة واسعة ·** وهناك يتركان السيارة ويأخذ « لين » من حقيبة السيارة معطف مطر وبطانيـــة ، فيفرش البطانية على الأرض فى مكان منزو بين الأشـــجار

الملتفة ، واما المعطف الواقى من المطر فانهما يلتحفانه معا فى حالة هطول الأمطار ، وينصرفان وهما فى حالة « الانسجام » - من الخمر والطعام الجيد الذى يدفىء أوصـــالهما - الى ألوان من « العناق » و « اللمسات » الحامية الوطيس . وهذا العناق « الســـاخن » هو العنصر الرئيسى فى برنامج الليلة باستمرار .

وكانت « ألس » تزهو دائما بأنها تعرف فى جميع الأحوال أين تقف ، وأين توقف « الطرف الآخر » عند حده ، وان كانت تعترف ان المسألة كلها محفوفة بالمجازفة ، وان المجازفة تبدو فى أحيان كثيرة مفزعة ، ولكنها تتنهـــد وتحمـــد الله على « السلامة » فى آخر لحظة ! ولكنها تعلم ان الحزم - مهما كان قاسيا على نفسها - فهو لازم وواجب ، **لأنها بفضل هذه الخطة تطمع فى ارغام « لين » على الزواج بها يوما ما ، كى يتخلص من هذه « التحريمات » المؤلمة . فان عاجلا أو آجلا سيصرخ لين :**

- لم يعد فى وسعنا الاستمرار على هذا النحو !

وهى واثقة انه فى حماسة الحرمان ســيعلن خطبتهما رسميا ! .. وهى تتوقع أن يحدث هذا الاعلان فى أى مساء من أمسيات السبت .

وكانت تأمل كثيرا أن يتم هذا فى هذه المرة بالذات ، لأن « لين » كان « مشتعلا » للغاية منذ غادرا الفندق ، ولم تكف يده عن تحسس أعطافها اللدنة فى المواضع الحساسة وهـو يقود السيارة ، قبل أن يصلا الى فندق ريتشموند كالعادة ، مما حرك مشاعرها . وحين تتحرك مشـــاعر امرأة نحو رجل ما فلن تقوى طويلا على الكتمان .

وفى منتصف كأس « الجين » الثانية قالت له بغموض :
« لن تستطيع أن تخمن من هو آخر خلان أختك روزا ! » ..

ولم يثر فضول « لين » ، لأن أخته روزا تصاحب عددا لا حصر له من الخلان ، الواحد بعد الآخر ، وقال بلا مبالاة :

ــ ليست لدى أية فكرة طبعا . ولماذا أهتم بأصحاب أختى ؟ .. انها لم تكن جادة فى صلتها بأى واحد منهم .. وانما هى ضمات ولمسات عابرة فى ركن مظلم من السينما أو فى المقعد الخلفى من سيارة أحدهم ..

وضحك لين وهو يقرص موضعا فى جسم « ألس » ، وقال:
« أنا أعرف أختى الصغيرة .. وحبها لهذه « المسألة » ! »
ــ سواء كانت جادة أو غير جادة ، فسيدهشك ، بل سيذهلك ، أن تعرف هذا الصاحب الأخير .. !

فبدا عليه الاهتمام وقال فى توجس : « لا تقولى لى انه متزوج ! » فقهقهت ألس وقالت : « متزوج ؟ ! بالعكس ! انه لم يزل تلميذا فى المدرسة .. عمره ١٨ سنة ! بل أقل من ذلك ! » .

ــ هل انقلبت أخيرا الى « خاطفة أطفال » ؟ ولكن لا شأن لنا بهذا ، ما دام هذا اللون من المتعة يروقها ! هيا اشربى بقية كأسك كى ننهض الى قاعة المائدة ..

فأمسكت « ألس » بكأسها ولكنها لم تشربها ، بل قلبتها فى يدها وقالت بلهجة ذات مغزى : « انت لم تفهم غرضى بعد ! » .

ــ بل فهمت ! روزا تصاحب تلميذا صغيرا . وماذا فى

ذلك ؟ هى حرة فيمن تختارهم لمتعتها الخاصة !

— ولكنه لاجىء ٠٠ من فلسطين !

— ايه ؟ ماذا تقولين ؟ هل هى التى قالت لك هذا ؟

— وكيف كنت خليقة أن أعلم ؟

— لابد أنها جنت !

— هذا بالضبط ما قلته لها أنا !

— وماذا قالت لك ؟

— قالت ما معناه أن اليهود والعرب ينبغى ألا يتباغضوا ، وكانت تشعر بمنتهى العطف عليه وعلى قومه !

— تعطف عليه ؟ على عربى ؟

— لأن أسرته فقدت كل ممتلكاتها عندما اضطرت للهجرة من اللد ٠

وشربت ألس كأسها وقالت له باسمة : « أفلا ننهض ؟ » ، ولكنه فى هذه المرة كان هو الذى تباطأ ، وبدا وجهه شاحبا جدا من فرط الغضب ، وقال لها بعنف : « أمامنا ما هو أهم ! لابد أنه يصب فى أذنيها دعايته المسمومة ضد الصهيونية وضد اسرائيل ! »

— ولكن مالنا ولهذا ؟ اننا لا نستطيع شيئا ، فهيا بنا نأكل ٠

ونهضت ، فلم يجد بدا من النهوض بحركة عنيفة ، فأسقط كوبا على الأرض لشدة تخبطه وهو يقول : « ألا نستطيع شيئا حقا ؟ سترين ما سأفعله ! »

وشعرت « ألس » بالخوف الشديد ، لأن روزا لن تغتفر لها هذه الخيانة ٠ ولكنها هزت كتفيها وقالت لنفسها : « ما كان لها أن تبوح لى بهذا السر على كل حال ، وهى تعرف أنى صهيونية متحمسة مخلصة لمبادئى وعقيدتى ! أوه ٠ كنت أتمنى لو عقلت لسانى ولم أفش سرها ، ولكن الكأسين جعلا الكتمان مستحيلا ٠٠ ثم لمسات « لين » ٠٠ وكل شىء !

***

وصمم « لين » على أن يصفى الموضوع مع روزا هذه الليلة بالذات • ولم يخض فى أى موضوع آخر على مائدة العشاء ، ولم يحاول مرة واحدة أن يمد يده خلسة تحت مفرش المائدة ليتحسس ركبتى « ألس » كعادته ••

وبعد لقيمات قليلة كف عن الطعام ، وقال : « أشعر بانزعاج شديد • لن أصلح للذهاب معك الليلة الى الحديقة • أعصابى فى غاية التصدع • ويجب على أية حال أن أذهب الى البيت مبكرا هذه الليلة • »

– ولماذا ؟

– كى أكون فى انتظار هذه العاهرة الصغيرة عند عودتها !

– ولكنى لا أعتقد أنها تقابله فى أيام السبت •

– أنت لا تعرفينها اذن ! انها لا يمكن أن تدع يوم سبت يمر من غير أن تتمرغ فى أحضان فتى يروقها ! ولم أرها تخلف عادتها هذه سبتا واحدا منذ تركت المدرسة !

ومدت « ألس » يدها من تحت مفرش المائدة ، ووضعتها على فخذه ، محاولة استدراجه ، وقد مالت الى الأمام بشدة فوق المائدة ، فبدت له من فتحة صدرها العارية مفاتنها التى كان يتحرق عادة الى اجتلائها ، ولكن سحنته المربدة لم يبد عليها التأثر بما يلمس ولا بما يرى ، فقالت : « هبها تسمع منه دعاية ضد الصهيونية ، ففى مقدورك أن تصحح لها تفكيرها بسهولة بعد ذلك ، من غير أن تفسد علينا لذتنا الأسبوعية بهذه الصورة » •

– يا لك من حمقاء ! أليست امرأة ؟ هل تعتقدين أن الفتاة المفتونة بشاب يمكن أن تعير سمعها لما يقوله أخوها ، اذا كان مناقضا لما يقوله خليلها فى لحظات الانسجام ؟

– أرجوك . لا تكن مفرطا في قسوتك على روزا ! انها مسألة هينة جدا .. هينة للغاية ! انه تلميذ صغير !

– لا فائدة من هذا الكلام كله ! هذه مسألة خطيرة جدا . ويجب وضع حد لها . وسأضع حدا لها .

– لست أدرى كيف يمكن هذا ! ماذا ستفعل ؟

– سأروعها ! سأفزعها بحيث لا تجسر بعد ذلك على الاتصال به .

– انها ستكرهك الى الأبد ! لن تغفر هذا لك !

– لا حيلة لى فى هذا . ومن ذا الذى يبالى بالحب أو الكره ؟ ان فى الدنيا أمورا أهم من هذين بكثير ..

- ١٠ -

والواقع أن روزا روعت ارتياعا شديدا ، حتى أنها بعد خطة التحدى الغريزية التى اتخذتها لأول وهلة ازاء أخيهـا ، دفاعا عن حقها فى الحرية الشخصية فيما يتصل بعلاقاتها بالجنس الآخر ، على حسب تقاليد بيئتها ، ثابت الى خطة أخرى مناقضة لها تماما ، **فتعهدت بألا ترى « أنطون » بعد ذلك أبدا ، فيما عدا مقابلة أخيرة تودعه فيها • بيد أن أخاها ظل ثابتا على موقفـه الحازم ، مصمما على ألا تراه حتى ولا تلك المرة ، وقال لها :**

ـ خبرينى أين ستقابلينه يوم الاثنين وسـأذهب أنا اليه وأشرح له الموقف • وسأعرف كيف أشرحه له جيدا !

وكانت قد اتفقت مع « أنطون » على اللقاء على ذلك المقعـد المواجه للبحيرة ـ فى المتنزه العام ـ فى منتصف التاسعة . وكانا قد التقيا يوم الأربعاء السابق عند محطة السيارات العـامة ، وتوجها على الفور الى دار قريبة للسينما • وكانت « الحفلة » ناجحة جدا ، فلم يريا شيئا من الفيـلم لفرط انهماكهما فى « عرض خاص » بهما ، وبلغ من هذا النجاح أنهما اتفقـا على المقابلة عند البحيرة يوم الجمعة ، وذهبا فى هذه المرة الى الغابة •

ولكن الخلوة فى الغابة هذه المرة كانت مختلفة تماما عن أول خلوة لهما هناك • لقد زايل أنطون حياؤه تماما ، حتى لقد شعر الاثنان أنه سيصعب عليهمـا الصبر على التباعـد مدة عطلة الأسبوع ـ حتى يوم الاثنين الذى تواعدا على اللقـاء فيه أمام البحيرة ، ليكررا زيارة الغابة ـ وقد بات أنطون لا يرهب الغرام

فى العراء • والحق أن افتتان كل منهما بالآخر ، أو بالمتعة التى يجدها بين أحضـانه بمعنى أدق ، كان بالغ التأجج ، ولكن لم يكن من ذلك الصبر مفر حتى يوم الاثنين •

وهاهو أخوها «لين» ينتزع منها هذا الوعد الفظيع بألا تراه ولو تلك المرة الأخيرة ، ولكنها صممت بينها وبين نفسها على أن تذهب للقائه تلك المرة ، ولو كان فى ذلك هلاكهـا ، ولذا كتمت عن أخيها مكان اللقاء !

وخرجت يوم الاثنين من البيت فى ساعة مبكرة جدا ــ قبل خروج أخيها ، حتى لا يتبعها ــ وظلت فى المتنزه زهاء ساعة تنتظر حضور أنطون ، وهى متوجسة أن تكون الخائنة الواشية « ألس » قد باحت أيضا بمكان التلاقى ، فتفاجأ بأخيها « لين » وقـد جاء متسللا الى هنـاك ، ولذا حرصت على التوارى خلف مجموعـة من الأشجار ، وهى فى حالة يرثى لهـا من التوتر العصبى ، الى أن حضر « أنطون » قبل الموعد المضروب ببضع دقائق •

ولكم أدهشه أن يراها تبرز له فجأة من وراء الأشجار ! ولكن الدهشة لم تلبث أن أخلت مكانها للفزع عندما رأى الامارات البادية على محيـاها وهى تقترب منـه ، وسألها : « ما الخبر ؟ هل هناك ما يروعك ؟ » •

ــ نعم • كل شيء • كل شيء على غير ما يرام • هيا بنـا نمضى الى الغابة •• وهناك سأشرح لك كل شيء •

وتبعها الى الغابة وهو يغالب القلق ، متصنعا المرح،وسألها : « ما المسألة ؟ ولماذا تسرعين هكذا ؟ »

ــ كى نختفى •

ــ نختفى ؟ ممن ؟ ومم ؟

ــ من أخى •••

وزادت من سرعتها ، فلم يسعه الا أن يلاحقها • وفى جوف الخميلة الملتفة هدأ من روعها قليلا بعد أن تلفتت حولها واطمأنت الى أن أحدا لا يتعقبها • وسألها مرة أخرى : «ولماذا يجب أن نختبىء من أخيك ؟ » •• ولكنه لم يترك لها فرصة للجواب ، بل جذبها اليه على الأرض المعشوشبة ، وأغلق فمها بقبلة منهومة أصابت رأس « روزا » بدوار ، وظلت بعدها عدة ثوان مبهورة الانفاس ، لا طاقة لها على الكلام ، فقال لها :

ـ لقد قضيت هذه الأيام على أحر من الجمر من شدة الشوق الى الاجتماع بك مرة أخرى ، أيتها الفاتنة الحلوة روزا !

وتشبثت به في وله ، وشرعت تبكى وهى تقول له : « آه يا حبيبى أنطون ! كم أنا شقية معذبة بسبب حبك ! »

ـ ما المسألة ؟ ما الذى يزعجك ؟

ـ لقد أرغمنى أخى على أن أقطع صلتى بك ، وقال لى اننى لو حاولت مقابلتك بعد الآن فسوف يتعقبنى أو يكلف من يتعقبنى ، الى أن يعرف محل اقامتك والمدرسة التى تدرس بها •• وسيضربك !

ـ يضربنى ؟ ولماذا ؟ هذا شىء عجيب • ثم ان ضربى ليس مسألة سهلة الى هذا الحد • ففى وسعى أن أقاتل قتالا مشرفا عند اللزوم • ولكن ما هى المسألة من بدايتها على كل حال ؟

فقمعت روزا دموعها ثم سألته بصوت خافت : « هل تحبنى حقا يا أنطون ؟ »

ـ طبعا • وأنت تعلمين ذلك • هل نسيت بسرعة ما كان بيننا فى المرة الماضية ؟

ـ ألا يمكن لأى شيء أن يغير من هذا الذى بيننا ؟ أعنى لو فرض واكتشفت أننى لست تلك التى تظاهرت أمامك انها هى.. وان اسمى ليس حقيقة «روزادو» .. وانه ما من قطرة دم اسبانى واحدة تجرى فى عروقى ، واننى اختلقت ذلك كله ••

فتناول احدى راحتيها وطبع عليها قبلة حانية وهو يقول : « يالك من فتاة مضحكة ! هل اختلقت كل ذلك حقا ؟ » ..

فأومأت برأسها ايجابا ... فضحك وقال : « وان لم تكونى « روزا روزادو » ، فمن أنت اذن ؟ »

– أوه ! ستكرهنى ان قلت لك من أنا فى الحقيقة !

– ربما كرهت الاسم ان كان فظيعا ، ولكن ذلك لن يحملنى على كراهيتك . هيا . هيا . قولى ما هو .. انه بلا شك اسم من تلك الأسماء البلهاء المضحكة ..

فقالت فى صوت ينم على اليأس : « روزنبرج . اسمى روزا روزنبرج . وأخى « لين » صهيونى متعصب . وهذه هى المسألة من أولها الى آخرها . وقد أبلغه شخص ما بالعلاقة التى بيننا ! »

فأسقط يدها من يده وحملق فيها غير مصدق أذنيه : « هل أنت يهودية ؟ » .. **ومرة أخرى أومأت برأسها ، وقد ثبتت عينيها فى عينيه ، والجزع اليائس مستول عليها ، وقالت بصوت يكاد لا يسمع :**

– لا حيلة لنا فيما ولدنا فوجدنا عليه آباءنا !

ولما وجدته صامتا لا يجيب ، أردفت : « ان كان لا يهمنى انك عربى ، فلماذا يهمك أن أكون يهودية ؟ » .. فدفن وجهه بين يديه ، محاولا اقصاء المشاهد التى تزاحمت أمام ناظريه ، وراحت أصوات الطائرات السوداء الصغيرة تطن فى أذنيه ، وهى تزداد اقترابا وانقضاضا !

وأحس فجأة ببرودة تسرى فى أوصاله ، وارتجفت أعضاؤه ؛ وحاول أن يرغم نفسه على النظر اليها وهى مسترخية بجواره على الأرض ، وشعرها الفاحم الغزير الجميل يحيط كالهالة بوجهها الجميل الشاحب ، وعيناها السوداوان الكبيرتان كأنهما بحيرتان من الدموع .. تراءى له هذا كله ، وبقدر ما كان كله

عزيزا عليه منذ لحظات قليلة ، لم يعد الآن يرى له معنى ٠٠ أو يحرك ساكنا !

واستجمع شتات ارادته ليقول شيئا : «**المفروض فى الظروف العادية ألا يهمنى شيء من هذا ٠ أى لو أن اليهود لم يغتصبوا وطنى ، ولم يفعلوا بنا ما فعلوا ٠ أما وقد عرفت الآن حقيقتك، فمن المستحيل علينا أن نستمر فى علاقتنا هـذه** ٠ والذنب ليس ذنبك طبعا ، ولكنه حظنا العاثر ٠٠ فلن يكون فى وسعى أن أرى فيك بعد الآن « روزا روزادو » التى أحببتها ! »

وأعياه أن ينظر اليهـا ، فأرخى نظراته وثبتهـا على كعب حذائه ، وعلى خنفساء صغيرة سـوداء كانت تدب على الأرض ببطء وسط تيه من الأغصان الجافة والأوراق الميتة٠٠وأسراب من النمل تدب أيضا فى ذلك التيه ٠٠ انه التيه ٠٠ التيه ٠٠ التيه ٠٠ فى البرية !

ونظرت اليه روزا وقد قسا قلبها وتحجر ، **وعندما تكلمت كانت ألفاظها وعباراتها أشبه بالشواظ الملتهب ٠٠ بل أشبه بالبصقات ٠٠ تلك البصقات التى رمت بها المرأة الاسرائيلية المجندة أباه يوم الرحيل المشئوم عن اللد ٠٠** وقالت له بمرارة: « انه التعصب ضد الساميين ! »

فنظر اليها بأسى وقال : « هذا مستحيل طبعا ٠ لأن العرب أيضا ساميون ! »

ــ وان يكن ٠٠ فأنتم تكرهون اليهود على كل حال !

ــ **ليس لأنهم يهود ٠ كلا ٠ فقد كنا لا نكرههم قبل النكبة ٠ وكان فى فلسطين يومئذ يهود كثيرون ، وفى مدرسـتنا كان اليهود يدرسون مع المسلمين ومع المسيحيين جنبا الى جنب بلا تفريق فى المعاملة ٠ ثم جاءت النكبة ، وتغير كل شيء !**

ونهضت قائمة على قدميها ، وهى تنضو الأوراق الميتة عن

ثوبها المصنوع من القطن ، ذلك الثوب الذى تتخيره واسعا جدا فى نصفه الأسفل ، لأغراض لا تخفى ! .. كذلك نهض أنطون وراح ينفض الشوائب عن ثيابه ، وهو ينظر اليها بشرود .. أهذه حقا هى الفتاة التى رآها تبرز من خلف الأشجار منذ أقل من نصف ساعة ، فقفـز قلبه لمرآها ورقص رقصة الحبـور واللهفة والحنين ؟ أهذه هى الفتاة التى كان منذ دقائق معدودة يرشف الرضـاب المستطاب من بين شـفتيها اللدنتين وهو يحسب ان لذات الدنيا ألقت اليه مقاليدها ؟

لكم يبـدو له كل هذا الآن وكأنه حلم أو سراب ! فهاهى ترنو اليه كسيرة الخاطر ، ساخطة عليه لأنه آذى احساسها ، ولكنه — يا للعجب ! — لا يستطيع أن يشعر نحوها بأى شفقة أو رحمة . فكل ما يحسه ازاءها هو الاستنكاف والقنوط .

وفيما هما يعودان الى الأرض المكشوفة فى المتنزه ، قالت له : « **لم يدر بخلدى فى وقت من الأوقات ان هذا اللقاء سيكون لقاء الوداع . أو أن الوداع سيكون على هذه الصورة . وكنت أؤمل دائما أن أجد ثغرة أستطيع أن أنفذ منها الى استمرار علاقتنـا رغم كل شيء ، غير مبالية بغضب شقيقى . لأنى كنت أخالك لن تبالى بأننى يهودية ما دمت تحبنى حقا** » .

— يؤسفنى ان هذا **مستحيل !**

وعندما صارا فوق الممر المفروش بالرمل ،قالت له : «لا تأت معى الى محطة السيارة العامة . لا حاجـة بك الى ذلك . فمن الخير الا يرانا أحد جهارا ، فربما كان « لين » كامنا لنا هنـا أو هناك . فقد أقسم أن يقتلك ضربا لو وقعت عينه عليك ! »

— أنا لا أخشى أخاك !

ووقفت لا تتحرك ، ثم قالت بصـوت متحشرج : « هـو الوداع اذن ؟ »

— نعم !

ـ ليكن اذن ما تشاء ! وداعا !

وأدارت له ظهرها فجأة من غير أن تمد يدها أو يمد يده ، وراحت تحث الخطى الى محطة السيارات العامة ، من غير أن تنظر خلفها ٠٠ ولم يرقبها أنطون وهى منصرفة ، بل سار على مهل وهو مطرق الى الأرض ٠ كان الأسى يملأ قلبه ، ممزوجا بالحنق والضيق الشديد ٠ وراح يتساءل هل سيجد فى نفسه الشجاعة الكافية كى يخبر وليدا بهذه المغامرة ؟

واذ ذكر وليدا **استولى عليه فجأة حنين جارف الى الأردن ٠٠ الى فلسطين ٠ وساوره ندم صارم لأنه فى الأسابيع القليلة الأخيرة لم يفكر فى فلسطين ! ٠٠ لقد أجلت هذه العلاقة الحسية المشبوبة أفكاره الوطنية عن ذهنه ، فانزوت فى مؤخرة رأسه !**

أجل ! لم يستطع فى هذه الأسابيع أن يفكر فى شىء سوى روزا ، واستولى عليه احساس بالاثم والخزى من نفسه ٠ وأحس أن وليدا لو عرف عنه هذه السقطة لاحتقره أشد الاحتقار ٠٠ لا لأنه أحب فتاة هذا الحب الشديد ، بل لأنه سمح لهذا الهوى أن ينسيه الهدف الأكبر ، بل الأوحد ، لكل عربى فلسطينى جدير بهذا الاسم ٠٠ وذلك الهدف هو تحرير فلسطين ٠٠ وهو يتمثل بالنسبة لهما فى طريق بئر سبع ٠٠

وعندما اقترب من الدار ، رأى جده جالسا بجوار النافذة المفتوحة يتصفح «التايمس» ٠٠ **وخامره احساس غلاب ، ولكنه احساس أورثه راحة شديدة ، بأنه سيعترف له الآن بكل ما أخفاه عنه من قبل !**

- ١١ -

أكب أنطون على الدرس والاستعداد للامتحـــان ، عسى أن يجد فى ذلك ما يصرفه عن التفكير فى هذه العلاقة المؤسـفة ، ولا سيما بعد أن سرى جده عنه ، **وصارحـــه بأنه كان يعرف ما يجرى وراء ظهره منذ البداية تقريبا ، وكاشفه بأنه رآه مع الفتاة بعد أول خلوة لهما داخل الغابة ، ولكنه آثر الصمت والانتظار الى أن يبوح له شخصيا من تلقاء نفسه بما هناك !**

وأدى أنطون امتحانه بنجاح ، وطلبت منه والدته أن يمضى جزءا كبيرا من عطلته معها ٠ وسره ذلك ، فأمه لا ترهقه عاطفيا بصحبتها ، لأنها مشغولة فى الغالب بأعمالها ٠ وهو لا يشعر بأنه يعرف عنها الكثير ٠ بخلاف جديه اللذين يقضيان الوقت كله معه ولا يدعان له خلوة أو استقلالا بالمعنى الصحيح ٠ ومع هذا التباعد ، كان ثمة شىء عميق بينه وبين أمه ، شىء أعمق من الرابطة التى بين الأم وابنها الوحيد ٠ وهذا الشىء يقوم فى جوهره على التجربة المشتركة والمحنـــة المشتركة : محنـــة الهجرة ، والمسيرة المميتة فى البرية ، واعباء النكبة وآثارها ، بما فى ذلك آثار الاغتراب فى أريحا ٠٠ ووفاة عائلهما الحبيب بطرس منصور ٠

وفى الأيام الأولى التى قضاها فى مسكن أمه الخاص ، بوسط لندن ، كتب أنطون الى وليد يقص عليه ما كان من أمر روزا : « ان جدى يعتقد انى كنت قاسيا على الفتاة، جائرا فى معاملتها٠ ولعلنى كنت كذلك ، ولكن ما حيلتى فى ذلك ، ولم يكن هذا

البتر الحاسم الا اجراء ضروريا لا محيص عنه . **لقد كانت الحقيقة المفاجئة التي تكشفت لى صدمة عنيفة ، أعادت الى وجدانى المأساة الكبرى بكل ما فيها من مرارة وقسوة وعذاب .. لم أعد أحس الا بأن تلك الفتاة واحدة من ذلك الجنس الذى اغتصب أرضنا ، وألغى وجود وطننا ، وشردنا بلا رحمة ، وبلا حق ، وبلا ضمير !**

« وأنا لم أبح بهذه المسألة المحزنة لأحد سوى جدى وسواك . وكنت قد أخبرت زميلا لى فى الدراسة ببداية هذه العلاقة ، ولكنى كتمت عنه نهايتها ، واكتفيت بقولى له اننا افترقنا لتعذر الاتفاق بيننا فى الطباع ! .. والحقيقة انى كنت عاجزا عن الدرس أو التفكير فى أى شىء ، وانا فى تلك الدوامة التى جرفت حواسى فجأة . تصور أنى لم أكن قادرا حتى على التفكير فى فلسطين ؟ ! ..

« **أما الآن – وقد انجلت هذه الغاشية – فأنا فريسة ندم شديد وخجل أشد ، لأن مثل تلك العلاقة الحسية استطاعت أن تستولى على زمامى الى هذا الحد ، أعنى الى حد نسيان قضية فلسطين وخطة بئر سبع . والى حد انى خدعت جدى وكذبت عليه ، وهو الذى أحبه حبى لأبى الراحل .**

« وأعجب مافى الأمر أنى لم أستبشع الكذب والخداع وأنا فى غمرة ذلك الهوى الجارف ، بل وجدتهما أمرين طبيعيين جدا . أما الآن فانى لا أتصور كيف أقدمت على ذلك .. وبهذه المناسبة لم يخطر ببالى – فى هذه السنوات الأربع ، وأنا بعيد عن الاهتمام بالفتيات – أن تكون لك علاقة بفتاة . أما الآن وقد حدثت لى هذه المغامرة ، فانى أتساءل : أليست لك فى الأردن فتاة تهواها ؟ وان كان ذلك صحيحا ، فهل تعرف كيف تهتم بعملك وخططك الوطنية

وأفكارك ومطالعاتك كالعادة ، وأنت فريسة هذا الهوى !

« ومنذ أيام كنت واقفا مع والدتى فوق جسر لندن ، ننظر الى ما يسمى « البركة » من تحتنا ، حيث تفرغ سفن قادمة من شتى أنحاء المعمورة حمولتها ، فتتلقفها منها سيارات النقل لتمضى بها الى كل مكان فى انجلترا • ورأينا سفينة سويدية تفرغ حمولة من الأخشاب ، والى جوارها سفينة بيضاء صغيرة حديثة جدا ، وتساءلنا من أين عساها جاءت ، **واذا بنا نتبين أنها سفينة اسرائيلية محملة بالموالح • وفى الحال انصرفنا ونحن فى منتهى الألم ، لأننا لاحظنا وجود كميات كبيرة فى الأسابيع الأخيرة من البرتقال « اليافاوى » فى متاجر لندن • وقد يكون جانب منه مجلوبا من مزارع آل منصور بالذات !**

« وتحاول أمى أحيانا أن تشرح لأصحاب المتاجر وللبائعين حقيقة الموقف • وقد حدث من هذا القبيل ذات مرة أننا ذهبنا معا لنشترى بعض الأزهار لتزيين شقة ماما ، ولكن الأزهار التى اختارتها والدتى كانت من نوع فادح الثمن وتسمى « جلاديوليس » ، ولذلك سألت عن مصدرها فقيل لها انها من « اسرائيل » ، فقالت أمى للمرأة التى تتولى البيع : « ان فداحة الثمن سبب للاحجام عن الشراء • ولكن كونها من اسرائيل سبب أدعى للامتناع عن شرائها ، فاسرائيل كما تسمونها ليست سوى فلسطين المحتلة • **وأنا شخصيا أرملة فلسطينى كان واحدا من بين مليون عربى لاجىء طردوا من ديارهم واغتصب اليهود وطنهم ، من غير أن يفكر أحد فى مصيرهم ، ولا حتى فى تعويضهم • مع أنه ما من مال - مهما عظم مقداره - يمكن أن يعوض الناس عن وطنهم وشخصيتهم القومية »** •

« ودهشت المرأة لهذا الذى سمعته ، وقالت انه لم تكن

لديها أدنى فكرة عن هذه الأوضاع · بل لقد استعملت كلمة « فظيع » فى نعت ما حدث من اليهود · ولكن عندما مررنا من هناك بعد أسبوع، وجدنا أزهارا جديدة من نوع «الجلاديوليس» فى المتجر ، ووجدنا أكداسا من البرتقال « اليافاوى » أيضا فى قسم الفواكه التابع للمتجر نفسه !

« وأنا اعتقد أن معظم الناس هنا فى انجلترا لايعرفون حقيقة الصهيونية · ولكن الأدهى من هذا أنهم لا يبالون حتى لوعرفوا تلك الحقيقة المرة ، لأن اليهود هنا منبثون فى كل مكان ولهم اتصالات كثيرة ، أما العرب فهم بعيدون عنهم ولايعرفون عنهم شيئا الا بالسماع ، أو عن طريق التخيل ، باعتبارهم سكان صحراء ورعاة ابل ! أو على الأكثر أهل مغامرات على طريقة أفلام ابن الشيخ !

« أجل ، ليس من السهل على الانجليز أن يحسوا باحساس العرب ، لأكثر من سبب ، وفى مقدمة هذه الأسباب : الجهل !·· أما اليهود ، فلهم نفوذهم فى صفوف الصحفيين والكتاب وملوك السينما وممثليها ، وبين الرسامين والموسيقيين ، وهم يتضامنون فيما بينهم على الدعاية لسلالتهم ، وابقاء العرب وراء الستار !

« وانها لظاهرة عجيبة أن يسود الجهل بالغرب على هذه الصورة والى هذا المدى المذهل ، فى الوقت الذى صغرت فيه رقعة العالم ، وصارت القاهرة وبيروت ودمشق على قيد ساعات قليلة من الطيران التجارى من لندن ·· وفى الوقت الذى ربطت فيه الاذاعات والصحف أرجاء المسكونة ·

« قريبا ياوليد سأكون معك ، فسيسمحون لى بقضاء عيد الميلاد القادم فى (رام الله) ، وسأذهب الى (بيت لحم) لزيارة أمين ، فان كنت فى رام الله عند حضورى ذهبنا الى

بيت لحم معا . وأنا فى الحق عاجز عن التعبير لك عن مدى تلهفى على العودة الى فلسطين .. »

***

وبسرعة جاءه رد وليد على هذه الرسالة ، وبشىء من التطويل ليس معهودا فى وليد : « سرتنى أنباء عودتك المرتقبة فى شهر ديسمبر ، وأرجو أن تخطرنى بموعد وصول طائرتك، وسأحاول أن أدبر وصولى الى هناك فى يوم ٢٢ ديسمبر أو بعده بقليل ، لأننى منذ ٨ أكتوبر – وهو بداية الفصل الدراسى – وأنا أدرس فى جامعة بيروت الأمريكية ، وعطلة عيد الميلاد عندهم تبدأ فى ٢٢ ديسمبر ، ومدتها أسبوع واحد .

« وسأقضى معظم العطلة فى (الخليل) مع أقاربى ، ولعلنا نحظى بقضاء بضعة أيام معا هناك ، وان كان من غير المنتظر أن نتمكن من مغادرة تلك المنطقة فى هذه المرة الى حيث تعلم .

« **أما سؤالك عن الفتيات ، فاعلم أنى لا أهتم بشأنهن اطلاقا ، فأنا شديد الانهماك فى دراساتى ، وفى ذهنى مسائل كثيرة جديدة فضلا عن هذا كله . وانى لآسف لأن بدايتك فى الحب كانت متعثرة على هذا النحو** . وأتمنى لك حظا أسعد فى المرة التالية ، وان كنت أنصحك بتأجيل هذه «المرة التالية» الى ما بعد عام التدريب ، حتى تتجنب التعقيدات التى تدخل الاضطراب على أى شىء يمكن أن نقرر المضى فيه .

« لقد أطلقت شاربى منذ التحقت بجامعة بيروت الأمريكية، وقد أرفقت بهذا الخطاب صورة حديثة لى ، حتى يتسنى لك التعرف على شخصى عندما ترانى فى المطار ! .. مع السلامة »

« وليد حسين »

٢٥١

- ١٢ -

قضى أنطون أسابيع كثيرة يتعلم على يدى جده روبرت طرق التدريس للعميان والتفاهم معهم ، وطرق التفاهم مع الصم والبكم عن طريق الاشارات واللمس باليـــد . واقترض من صديقه مستر جونز - وهو مدرسه الخاص السابق - عددا كبيرا من الكتب فى التربية وعلم النفس ، كان يطالعها بنهم ويردها ليقترض كتبا غيرها . وكان مستر جونز يوجهه أيضا الى مطالعة كثير من الكتب التى ساعدت على تشكيل ذهنـــه وتوسيع آفاق تفكيره .

ولم يكن يزعجه عاطفيا فى تلك الفترة ســوى والدته . وكم تمنى لو أنه استطاع أن يصنع شيئا لارضائهـا ، ولكن ارضاءها كان فادح الثمن جدا : لأنها لا ترضى بأقل من تخليه عن تصميمه على قضـاء تلك الســنة فى الأردن . وكانت هذه الفكرة قد ازدادت الحاحا على ذهنـــه ، منذ منى بتلك الصدمة العاطفية فى علاقتـه بروزا . وكانت أمه قد وافقت على خطته مرغمة أو شبه مرغمة ، الا أنها قالت له - بصريح العبارة - أنها تتمنى لو غير رأيه قبل فوات الأوان . ولكنـه رد عليها بأنه يعلم سلفا أن رأيه قاطع ونهائى ، ولن يطـرأ عليه تعديل .

وسألها ذات يوم فى ضراعة : « لماذا تقفين هذا الموقف المناهض لسفرى الى موطنى ؟ » .. ولم تستطع أن تقول له : **« لأنك كل مابقى لى من بطرس ، فان عدت الى الأردن فمكثت هناك تلك السنة بطولها ، فمعنى ذلك أنك خرجت من حياتى**

عاما كاملا ، أو ربما الى الأبد » ، ولكنها اكتفت بأن تقول له ببساطة : «لأننى سأشعر بالوحدة والوحشة بدونك » ، فقال لها بحرارة : « ولكنى سأكتب اليك باستمرار • وسيكون فى وسعك أن تأتى لتمضية فترة من الوقت معى هناك ، عندما تظفرين بعطلة من عملك الصحفى المكتبى » •

وباصرار قالت له : « لن أستطيع العودة الى الأردن • لن أستطيع » ، فأجابها فى ابتئاس : « لكم تشعريننى بالشقاء ، وتجعلين الذهاب عسيرا على جدا ، مع أنك تعلمين أنه لامناص لى من ذلك » •

— انى آسفة جدا لايلامك ياعزيزى • وأنت بطبيعة الحال صاحب الرأى الأخير فيما ينبغى أن تصنع ، وان كان ذلك لايروقنى ، ويجشمنى عناء نفسيا شديدا • فكن أمينا مع نفسك ، واصنع ما يوحيه اليك عقلك وضميرك • ولكنى فى الوقت نفسه لايسعنى من جانبى الا أن أكون أمينة مع نفسى • وبوحى من هذه الأمانة أصدقك القول ان رحيلك يسبب لى ألما شديدا •

***

وقبيل عيد ميلاد « أنطون » الثامن عشر كانت أمه قد حدثته برغبتها ورغبة جديه فى اقامة حفل له ، لأنه سوف لا يكون حاضرا فى أعياد الميلاد ورأس السنة ، ولا فى عيد ميلاده التاسع عشر • وسيكون هذا الحفل آخر حفل يحضره قبل امتحان الفصل الدراسى الثانى والأخير فى مدرسته • وهو الامتحان الذى يرجو أن يتفوق فيه كما تفوق فى امتحان الفصل الدراسى الأول • وقد شجعهم على ذلك أن يوم عيد ميلاده يوافق يوم السبت ، وهو يوم مناسب جدا لدى الانجليز لاقامة الحفلات الخاصة ، وسيكون فى وسعه أن يدعو من يشاء من أصدقائه وزملائه الطلاب •

وضحك أنطون ليدارى عزوفه عن تلك الحفلة قائلا : « الحقيقة اننى بغير أصدقاء بالمعنى الدقيق للكلمة ، ولست راغبا فى أن تقام لى حفلة فى هذه المناسبة ! » ٠٠ واشتد الجدل بينه وبين جدته وأمه ٠٠ الى أن تدخل جده فى المناقشة ، وأنقذ الموقف بقوله : « **لماذا لاندع الفتى يختار طريقة الاحتفال بعيد ميلاده على النحو الذى يهواه ؟ فهذا عيد ميلاده « هو » بعد كل شىء !** »

وراحت ماريان تنظر الى أبيها تارة والى ابنها تارة أخرى ، فى استياء واضح ، ولكنها غلبت على أمرها فسألت أنطون :

— قل لنا ماذا تفضل أنت ؟

— أفضل أن نتناول العشاء معا فى البيت كالعادة ، نحن الأربعة فقط ، ونقتسم فيما بيننا زجاجة من النبيذ الفوار ٠

ولكن الجد قال بلهجة حاسمة : « ليكن ، ولكنى أصر على أن يكون شرابنا فى تلك الليلة الشمبانيا دون سواها »

***

ويبدو أن ماريان كانت مصممة فيما بينها وبين نفسها على فرض شىء من الجو الاحتفالى الاجتماعى على تلك المناسبة ، فقامت — من غير أن تخبر أحدا بعزمها — بتوجيه الدعوة الى زوجين من أصدقائها هما آل براون ، لقضاء السهرة فى البيت بعد العشاء فى ذلك اليوم ٠ وكان « ديزموند براون » هو مدير الاعلانات فى دار صحافة الشرق الأوسط التى تعمل بها ماريان ٠ **وهو فى نحو الثلاثين من عمره ، وسيم الشكل ، واسع الاطلاع فى شئون الشرق الأوسط ، وفى خلقه لطف وايناس — فى نظر ماريان على الأقل — أما زوجته « سوزى » فليست على مستوى عال من الثقافة ، ولكنها دمية جميلة جدا ، ومن ذلك النوع من النساء الذى يستخدم للزينة !**

وكانت ماريان قد دعيت مرارا كثيرة فى بيت هذين الزوجين ، وهو بيت صغير أنيق ، وسبق لها أن دعتهما كثيرا

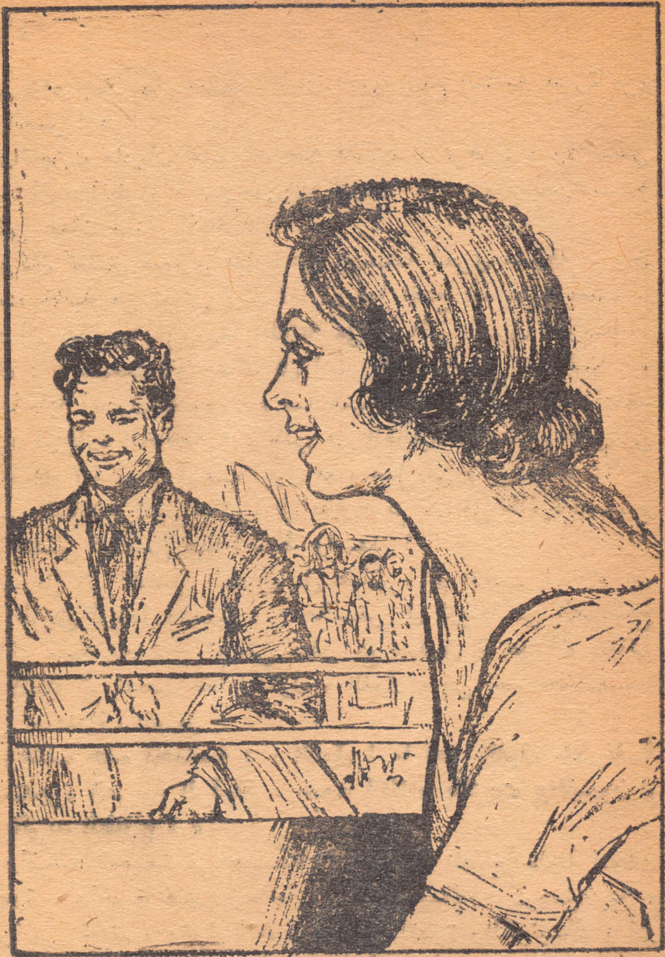
فى بيت والديها . ولكن لم يسبق لأنطون أن التقى بهما لأن حضورهما الى بيت آل ملبى كان فى المدة التى قضاها أنطون فى معسكرات التدريب . فخطر لها أن هذه هى المناسبة اللائقة لدعوتهما ، للاجتماع به والتعرف اليه ، وأن وجودهما سيزيد من بهجة السهرة ويخرجها عن المألوف .

ولم يرحب أنطون بالفكرة عندما علم بها فى يوم عيد ميلاده ترحيبا حارا ، ولكن جده سرى عنه قائلا : « لا عليك يابنى . فلن تجد نفسك مطالبا بالاجتهاد فى تخير الأحاديث مع مسز براون ، لأنها لا تفقه أى نوع من أنواع الحديث . أما زوجها فيجيد الكلام ولا يجيد الاصغاء . **وستكون على خير حال وأنت ملتزم الصمت ، تصغى لما يقول الزوج وتملأ عينيك من الزوجة الحسناء !** »

وقطبت الجدة حاجبيها وزجرت زوجها ، طالبة منه أن يستغفر ربه لما تفوه به من الاغتياب ، واتهمته بأن الشمبانيا صعدت الى رأسه !.. فلم يسعه الا أن يسكت ويطرق ، واتجه الى المذياع فأدار مفاتيحه ، واذا بالباب يطرق ويدخل الضيفان .

واستقبل أنطون الضيفين بتحفظ شديد ، **ولفت نظره اسراف الزوجة الشابة فى استخدام الحلى الصناعية البراقة ، واغراقها فى التضمخ بالعطور النفاذة ، واسرافها فى اغداق ابتساماتها التى تكشف عن صفين من الأسنان الجميلة .** أما « ديزموند » ـ الزوج ـ فلم يشعر نحوه أنطون بارتياح ، رغم أناقته الشديدة ، وابتسامته وتحذلقه فى تخير ربطة عنقه !

ونشطت الجدة لصنع القهوة ، ودعا الجد مسز براون لتناول شىء من الشمبانيا . فقالت بجذل كالأطفال : « شمبانيا ! انكم توسعون على أنفسكم كما أرى ! » .. فقال



« وما أشد المفارقة بين ذلك الحب الطاهر الذى يكنه لثريا ، وما كان يكتوى به من الشوق الحار الى عناق روزا .. ! »

ملبى وهو يملأ لها كأسها : « ان الفتى يبلغ الثامنة عشرة مرة فى العمر ! »

وانتهزت ماريان هذه الفرصة فقالت تذكرها : « ولا تنسى أيضا أن « أنطون » سيرحل الى الأردن بعد انتهاء الدراسة ليقضى هناك سنة كاملة » .

وكان تعليق سوزى عبارة عن ابتسامة أخرى مشرقة — وان كانت خالية من المعنى ! — أما زوجها ففتح الله عليه بعبارة أراد أن يدل بها على سعة اطلاعه على مسائل الشرق الأوسط ، فقال : « سمعت أنك عائد الى أشد بقاع الأرض انخفاضا ؟ »

فأجابه أنطون بفتور : « سأذهب الى (أريحا) فيما أعتقد لمجرد الزيارة الخاطفة . ولكنى فى الغالب سأقيم مع عمى فى (رام الله) قبل أن أذهب لتولى مهام عملى فى (بيت لحم) . »

— ولماذا لا تطير مباشرة الى بيروت ثم تستقل طائرة الصباح الى القدس ؟ أليس هذا أبسط وأسهل ؟

— بل انى أفضل الطيران الى عمان ، ثم أذهب الى رام الله عن طريق أريحا بالسيارة . فالسفر الى أريحا فى الصباح الباكر متعة نادرة . ثم انى متفق مع صديق لى على أن يلقانى فى المطار ثم نذهب معا لتناول « الفول » فى أحد مطاعمها قبل استئناف السفر .

وهتف جده بحماسة : « الفول ! ما أحلى الفول بالأرغفة المستديرة العربية الرقيقة ، سواء أكلناه بالزيت والليمون ، أو بالزبد الطازج ! »

وأقبلت الجدة فى هذه اللحظة الى المطبخ حاملة أدوات القهوة ، وأخرج ملبى زجاجة من كونياك « كورفوازييه » الفرنسى المعتق ، وتولى أنطون توزيع القهوة والكونياك ، فى حين راحت ماريان تشرح لضيفتها الحسناء « سوزى براون » صعوبة الحياة فى أريحا ، وكيف كانت تستجلب السمك

فى صناديق من الثلج من (العقبة) .. فصاحت سوزى :
- العقبة ؟ ما هذا الاسم ؟

فقال ملبى : « انها ميناء على البحر الأحمر . **فاليهود قد اغتصبوا ساحل البحر الأبيض لأنفسهم ، والأردن ليس بها بحر سوى البحر الميت .** »

- وماذا عن بحر الجليل ؟

فقال زوجها بحذلقة : « بحر الجليل يوجد الآن فى اسرائيل . »

فقال أنطون بحزم وهو يقدم له آنية السكر :

- بل قل فلسطين المحتلة !

فقال ديزموند بمزيد من الحذلقة : « اسرائيل أمر واقع ، سواء أحببنا هذا أو لم نحببه . والأولى أن نكون واقعيين !» ..

وكان يتكلم وقد وضع ساقا على ساق ، وهو يهز قدمه أثناء الكلام ، وابتسامته المتكلفة متقنة جدا وأنيقة مثل رباط عنقه تماما . وشعر أنطون بازدياد بغضه له . وتساءل بينه وبين نفسه : ترى هل يكرهه جده كذلك ؟ ولكن الجد لم يكن يبغضه فى الواقع ، وان كان يضيق به ضيقا شديدا ، ويراه ثقيل الظل ، ويشعر بالغيظ لاهدار الكونياك الجيد على مثل هذا الرجل السخيف !

ويبدو أن الشمبانيا التى شربها أنطون على العشاء بكثرة ، زادت من ثورة غضبه ، وجعلته أشد اندفاعا وجرأة ..

فقال على سبيل التحدى : « **بل ان الواقعية تقتضى منا أن نسمى الأشياء بأسمائها !! ووطنى الذى ولدت به اسمه فلسطين . وبهذا الاسم عرف من آلاف السنين . ويوما ما - ليس ببعيد - سيعود هذا الاسم الى الوجود من جديد !** »

وغمغم ملبى بالعربية : « ان شاء الله . » .. فقال ديزموند بسخافة : « أشك كثيرا أنك ستبقى هذا اليوم ! »

.. فطار عقل أنطون ، واندفع يقول : « ان جيل الفلسطينيين ممن فى سنى سيرون هذا اليوم ، لأننا سنعمل على تحقيقه ! » .. ثم ارتفع صوته وهو يعلن بضراوة :

ـ ستتحرر فلسطين على يد الفلسطينيين !

فارتسمت على وجه ديزموند علائم التفكه الممزوج بالتهكم ، وقال له وهو يكسر جفن احدى عينيه : « على يد جيش التحرير الفلسطينى ؟ »

ـ أجل . وسيعمل هذا الجيش السرى فى داخل اسرائيل نفسها . سيكون لنا هناك طابور خامس !

ـ أهو التسلل الجماعى ؟

ـ ليس جماعيا . بل تدريجيا . وقد يستغرق ذلك منا بضع سنين .

فالتفت ديزموند الى كأس الكونياك وراح يديرها بين يديه ليدفئها ، ثم قال : « أخشى أن تستغرق فعلا هذه العملية سنوات تتجاوز المدة المقدورة لحياتك ! »

وتدخل ملبى فى الحديث قائلا للضيف : « ينبغى أن تسمح للشباب بأحلامه الخاصة . ألم تكن لك أحلامك وأنت فى الثامنة عشرة ؟ » .. فقال ديزموند بلهجة جافة : « عندما كنت فى الثامنة عشرة ـ سنة ١٩٣٩ ـ كانت الحرب قد اندلعت ، ولم يكن لدينا وقت للأحلام ! »

وتكلف أنطون التثاؤب فجأة ، ثم ضحك وقال : « آسف جدا . ولكن يبدو أن الشمبانيا هى التى أصابتنى بالتثاؤب . فاسمحوا لى بالانصراف . » .. ثم صافح الضيفين ، **وأمسكت سوزى يده بين كلتا يديها وقالت :**

ـ ينبغى أن نلتقى مرارا كثيرة بعد عودتك من الأراضى المقدسة . وأتمنى لك سفرا سعيدا .

وأسرع هو بالفرار من هذا الجو .. !

- ١٣ -

وما أن أوى أنطــون الى حجرته ، حتى أحس بازدياد وطأة النعاس عليه • فانتزع ثيابه انتزاعا واندس فى الفراش - من غير أن ينظف أسنانه كعادته قبل النوم - وكان يقول لنفسه : **« كان خطأ منى أن أحتسى هذه الشمبانيا اللعينة ، فان الخمر تفك عقدة لسانك ، فتقول مالا تريد أن تبوح به لانسان ! »**

•• واستيقظ فى اليوم التالى متأخرا ، وهبط الى الطابق السفلى ليجد جدته قد غادرت البيت الى الكنيسة ، أما جده فقد قالت له أمه انه خرج ليتمشى قليلا ، ثم أردفت : « لقــد أوشكت الساعة أن تدق الحادية عشرة • »

- آسف جدا ، فقد أصابنى صداع شـــديد ، من تأثير الشمبانيا فى الغالب •

ووجد افطاره موضوعا على ركن من المــائدة ، وكانت ألوانه منتقاه من بين أطعمته الصباحية المفضلة : وهى اللبن الزبادى ، والزيتون الأسود ، والجبن والتفاح ، فأكل بضع زيتونات ثم ذهب الى المطبخ ليصنع لنفسه قدحا من القهوة التركية ، ثم عاد ليشربها وهو يقضم تفاحة ، وعندئذ أقبلت أمه فجلست قبالتـــه وقالت : **« أريد أن أنتهز فرصة انفرادنا فى البيت لأتحدث اليك • »** •• فنظر اليها نظرة ثابتة وقال : « بشأن ما قلته أنا بالأمس ؟ ؟ »

- بشأن هذا الحديث عن التسلل الى الأرض المحتلة • ألهذا تريد أن تعود الى فلسطين ؟ أهى الأحلام الرومانسية اليافعة عن التحرير على يد طلاب المدارس ؟ أهذا ما تدبرانه ، أنت وصاحبك وليد ؟

فحول أنطون عينيه عن عينيها وقال :

ـ أنت تعلمين لماذا أريد أن أعود . لقد أرهقنى الحنين الى وطنى ، وليس لى ها هنا أصدقاء بمعنى الكلمة .

ـ لقد كنا متفقين فى البداية على أن تقضى هناك عطلة صيفية بعد انتهاء دراستك الثانوية ثم تعود لقضاء سنة العمل التدريبى هنا ، فلماذا غيرت رأيك وأصررت على قضاء تلك السنة هناك ؟ مع ما فى ذلك من انفصال عن أسرتك ؟

ـ عمى فريد وزوج عمتى خليل وأبناؤهما هم أسرتى كذلك .

ـ ولكنهم ليسوا لصقاء بك كوالدتك وجديك .

واحتسى بقية القهوة التى كان يستطيبها غاية الاستطابة حين شرع فى تناولها بعد أن صنعها بعناية ، لكنها صارت الآن ولا طعم لها ، بعد أن بردت ، كما تغير طعم فمه ـ بما طرأ عليه من مرارة ـ واستطردت أمه : « لم يواتنى النوم طول الليلة الماضية من شدة قلقى عليك ، بعد أن أطلقت الخمر لسانك بما يدور فى ذهنك . ولم يكن عهدى بك أن تتكلم على هذه الوتيرة . **وهالنى ما سمعته منك عن التسلل ، وتكوين طابور عربى خامس داخل الأراضى المحتلة ، بين سمع اليهود وبصرهم! أنطون ! ألست ترى هذا كله خيالا ؟** »

فجعل يحدق فى صحفته ، وهو يعبث بسبابته بنوى الزيتون الأسود الذى أكله من قبل ، وهو يعاهد نفسه على ألا يقرب الخمر بعد ذلك ، سواء كانت شمبانيا أو غير شمبانيا . وأدرك صواب التعاليم الاسلامية التى تحرم الخمر على المؤمنين بالاسلام ، وهو لا يعرف مسلما متدينا فى فلسطين يقربها ، ولا يحسب وليدا يمكن أن يمسها بيده فى يوم من الأيام !

وثاب من شروده ليسمع والدته تسأله بحدة : « **هل سمعت**

ما قلته لك ؟ انى أريد منك أن تقسم لى على أنك لن تتورط فى مثل هذه المخاطر ان أنا سمحت لك بقضاء تلك السـنة فى الأردن ! »

فغمغم قائلا : « انى لم أعد طفلا . »

— بل انك من بعض الوجوه لم تزل طفـلا . وما كنت تقوله بالأمس لا يعدو أن يكون تخليط أطفال . لقد أخجلتنى بما تشدقت به أمام الضيفين . ومن حسن الحظ أن الجميع قدروا أن ذلك ليس تفكيرك السـوى ، وأن الخمر هى التى عبثت بعقلك فقلت ما قلت .

— وهو ظن صائب .

— اذن أنت لم تكن جادا فيما قلته عن الطابور العـربى الخامس ؟

— بل انى أراها فكرة طيبـة للغـاية ، وهى ليست من اختراعى .

— قد تكون طيبة حقا لو أنه أمكن تحقيقها ، ولكن ذلك غير مستطاع . ولو كان أبوك حيا لقال لك هذا .

— لست أذكر بالضبط كل ما قلت .

— لا بد لك من أن تعدنى بألا تقدم على حماقة من هذا القبيل ان أنت ذهبت الى الأردن !

— ماذا تعنين بالحماقة ؟

— أى عمـل تدرك أننى لن أقرك عليـه . أقسم لى على هذا !

فنظر اليها وقد بدأ غضبه يتحفز فى داخله ، وقال :

— ولماذا القسم ؟ ألا تثقين بى ؟

— أما بعد الذى كان الليلة الماضية فلا !

— هذا ارغام وارهاب لاحق لك فيه !

– بل لى كل الحق ، لأنى أمك . ولأنك ابنى الوحيد ، والبقية الباقية لى فى هذه الدنيا . أنك تسمى ذلك ارغاما وارهابا . أما أنا فاسميه باسم آخر : أنا أسميه طلبا مشروعا أوجهه اليك بأن تلتزم جادة اللياقة والاتزان فى تصرفك . فاما أن تقسم لى على هذا ، أو لا سفر !

ثم نهضت وغادرته يعبث بنوى الزيتون فى شرود ، الى أن دخل عليه جده بعد بضع دقائق فقال له بمرح : « ما رأيك فى قدح من القهوة يا أنطون ؟ » ، فنهض أنطون واتجه الى الموقد ليصنع القهوة ، ولاحقه جده وهو يحشو غليونه بالتبغ ، ثم قال له : « لقد حدثتنى أمك بما دار بينكما من نقاش منذ برهة . وهى شديدة الانزعاج بشأنك ، فهلا أرحت بالها ؟ »

– ليس أحب الى من هذا ، ولكنها ترغم أنفى بذلك القسم الذى تطلبه منى ارغاما .

– انما تطلبه منك لتطمئن عليك . بل انى أنا أيضا مثلها ، أريد أن تؤكد لى أنك لن تقدم على أى عمل طائش .

فقال أنطون فى نفسه وهو يتنسم عبير القهوة الممزوجة بالحبهان : « حتى أنت ؟ » ، ولكنه كتم ما بنفسه وهم بأن يناقش جده قائلا : « وما العمل الطائش ؟ من الذى يقرر هذه الصفة ؟ » .. لكنه اكتفى بقوله له وهو يضع القهوة أمامه :

– أقدم لك التأكيد الكامل لهذا الشرط .

– شكرا لك . يجب أن تقدم مثله لوالدتك أيضا .

– سأحاول .

– تحاول ؟

– لأنه يستحيل على ذلك تحت التهديد . ثم أن بى صداعا

من أثر الليلة الماضية ، وأريد أن أخرج للسير ساعة ، ان لم تكونوا بحاجة الى هنا .

ـ قد تكون أمك بحاجة الى مساعدتك لها فى اعداد الغداء .

ـ سنسألها .

واتجه الى حجرة الجلوس فألفى أمه جالسة عند النافذة تقرأ ، فقال لها : « أتريدين منى أن أساعدك فى تقشير البطاطس أو ما الى ذلك ؟ » .. فأجابته ببرود ، من غير أن ترفع بصرها عما تقرأ : « لا . وشكرا لك . »

ـ فى هذه الحالة أود أن أخرج للنزهة لمدة ساعة ، لأن بى صداعا .

فأجابته وهى تقلب الصفحة من غير أن تنظر اليه :

ـ عد فى الساعة الواحدة .

ـ أوه . أرجوك ألا تسخطى على .

فلم تنظر اليه ، ولم تجب .

* * *

ولم يعودا الى هذا الحديث الا فى المطار قبل عيد الميلاد بثلاثة أيام ، وكان الوقت مساء ، فتوسلت ماريان الى ابنها للمرة الأخيرة :

ـ عدنى أنك لن تقدم مع وليد على حماقة طائشة ! عدنى يا حبيبى ، أرجوك !

فتناول اليد التى وضعتها فى ضراعة على ساعده ، ورفعها الى فمه وقال : « كم أتمني ألا تقلقى بسببى أو تنزعجى لمجرد أننى سكرت قليلا فى ليلة عيد ميلادى الثامن عشر ، وتفوهت بكلام فارغ ! »

ـ هذا اذا ظل ذلك الكلام فارغا ، لا نية وراءه للعمل به !

ـ ماذا تخالين ؟ ماذا يسعنى أنا ووليد أن نفعل لتحرير فلسطين المحتلة ؟

وفى هذه اللحظة عاد جده من كشك الكتب والصحف فى المطار وقد اشترى صحف المساء وطائفة من المجلات ، فسأله أنطون : « ألم تساورك الرغبة فى القدوم لزيارتى هناك ؟ »

ـ لست أحب أن أعود الى فلسطين وهى محتلة مغتصبة !٠٠ ولكن اقرىء عنى السلام تلك الشجرة العجوز عند الكنيسة فى بيت لحم ٠ وأبلغ القدس عنى تحية حب ٠

ولم تكن جدته معهم فى ذلك المساء ، لارتباطها بجلسة فى احدى اللجان كالعادة ، ولأنها خشيت أن تخونها أعصابها فى المطار ٠٠ وقد ودعته فى البيت بالعناق والبكاء وتوسلت اليه أن يكتب اليها كثيرا ٠ أما فى مطار لندن فلم يبك أحد ٠ لاهو ولا أمه ولا جده ، بل قبلته أمه وضمته اليها لحظة ثم أطلقته قائلة : « **انتبه لنفسك يا حبيبى !** »

أما جده فصافحه قائلا : « على بركة الله وفى أمان الله ! وعد الينا سالما ٠ »

ـ ان شاء الله !

وعندما حلقت الطائرة به ، قالت ماريان لأبيها :

ـ أليس عجيبا أن يعود الى بيت لحم بالذات ! ٠٠ لكأنى به عاد الى بطرس ٠٠٠

الكتاب الثالث

العــودة

- ١ -

أحس أنطون بفرحة طاغية لم يشعر بها من قبل والطائرة تدخل به سماء (عمان) من فوق التلال الصحراوية الجرداء ، حتى لقد نازعته نفسه لأول مرة فى حياته الى الغناء والصياح ، لينفس عما فى أعماقه من الجيشان .. فان هى الا لحظات قلائل حتى يرى وليدا ويعانقه ويتحدث اليه بعد كل هذه الفترة الطويلة التى امتدت أربع سنين . **لقد افترقا تلميذين ، وهاهما الآن يلتقيان وقد غدا وليد شابا ذا شارب كث . وعجز أنطون عن تصور شكله ، فاستخرج من حافظة نقوده صورة وليد الشمسية التى كان قد بعث بها اليه ، وجعل يتطلع متأملا تفاصيلها ..**

وخيل اليه ان دهرا طويلا قد انقضى قبل أن يفتح باب الطائرة وقد هبطت على الأرض وجرت فوقها مسافة طويلة ، ثم بدأ الركاب فى النزول ، فصافحت وجوههم أنسام الفجر الرطبة قبيل شروق الشمس . ولم يستطع أنطون أن يتبين وجه صديقه بين زحام المنتظرين ، ولكنه راح يلوح بيده ، موقنا من أن وليدا سيتبينه !!

وعبر أنطون المسافة بين الطائرة ومبنى المطار ، وأقبل الموظفون على فحص جوازات السفر ، وصافحت أذنيه من كل صوب تلك الألفاظ العربية ، فراح يتلقفها فى سرور واشتياق بعد طول انقطاع عنها .

ودخل مع الداخلين ، وانتظر مع المنتظرين أمام الحاجز الى أن يتم فحص الأوراق ٠ واذا به يفاجأ بزوج عمته خليل داود مقبلا من باب جانبى وراء حاجز الحقائب ، ومن ورائه شاب وسيم ذو شارب أسود كث ، وفتاة فاحمة الشعر فى ثوب صيفى أنيق ٠٠ وانقض خليل داود عليه وضمه الى صدره وقبله على خديه ، وهو يهتف بعبارات الترحيب والتهنئة بالعودة الى الوطن ، **وألفى الشاب نفسه يحتضن زوج عمته ويصيح مثل صياحه بلغة عربية طلقة ، وقد انجابت عنه كل صلة له بانجلترا ولغتها وعادات أهلها وتفكيرهم ، ولم يقاوم دموعه التى انبجست من عينيه ٠**

٠٠ ولم يدر هل كان فى وسعه أن يعرف وليدا من تلقاء نفسه أم لا ، لأن الشارب الأسود غير شكله كثيرا جدا ، ولكنه أحس بأن هذا هو وليد حقا حين عانقه وهتف بعبارات الترحيب ، وضحك تلك الضحكة التى يعرفها عنه جيدا ٠٠ وبعد أن خفت حدة هذا الاضطراب الذى غمره لأول وهلة ، فطن الى وجود الفتاة ، فتقدمت صوبه على استحياء ، وسألته :

– ألا تذكرنى ؟

وتردد أنطون قليلا ، فصاح وليد :

– أنت ولا شك تذكر « ثريا » !

وضحكت الفتاة عندئذ ، ففطن الى أسنانها غير المنتظمة ٠ ولكن عدم انتظامها لم يعد الآن ذا بال ، لأنها فى هذه السنوات الاربع قد تغيرت على نحو ما ، فأصبحت ذات جمال ووسامة ٠٠ وابتسم أنطون وقال لها :

– لقد رأيتك فى الحفلة التى أقيمت احتفالا بعودة نصرى زوج بنت عمى من الأسر ٠ واذكر انك كنت تتأهبين لدراسة الطب ٠

– وأنا الآن بالفعل فى كلية الطب بجامعة بيروت الأمريكية ٠

وفى هذه الأثناء كان فحص الحقائب قد تم · **وانطلق الجميع فى سيارة خليل لتناول الفول فى مطعم صغير لطيف بعمان · وكل شئ يبدو فى نظر أنطون وكأنه قطعة من الجنة·** وبعد الافطار صاح أنطون : « لكأنى أحلم حلما لا أريد أن أفيق منه ! » ·· فقال زوج عمته : « اننا جميعا فى دار السلام بأريحا لقضاء عيد الميلاد · فأرجو ألا يحزنك الذهاب الى هناك · »

ـ اطلاقا ! لكم تشوقت الى أريحا والى دار السلام !

وتولى خليل قيادة السيارة صوب أريحا عن طريق وادى الأردن ، وما يحف به من تلال عظيمة ، وبطاح مترامية ، كان قلب أنطون يخفق لكل لمحة من لمحاتها · وخيل اليه انه وان لم يكف فى هذه السنوات الأربع عن التفكير فى هذه البقاع ، الا أن مدى سحرها قد غاب عن ذاكرته · وعندما أخذت السيارة فى الانحدار عند جسر « ألنبى » ، اشتد الضغط على أذنيه فأصيب بصمم وقتى من فرط الانخفاض عن مستوى سطح البحر · ولاحظ أن ثريا أيضا أخذت تسد أذنيها بأصابعها ، فنظر اليها وتبادلا الابتسام ، ثم قال : « لابد من هذا الاحساس فى الأذنين والمرء فى طريق أريحا ، ولكن هذا كله ينسى متى وصل الانسان الى ذلك البلد الجميل · »

وسره أن تومىء برأسها ايجابا ، لأنه ود من قرارة نفسه أن تحب ثريا أريحا ، وأن تتفق معه فى المزاج ، سيما وهو يحس دفء ابتسامتها الودية ··

وسنمع زوج عمته يقول : « سنبعث من أريحا الى والدتك ببرقية نخبرها بوصولك · ان الساعة الآن منتصف التاسعة ، ولكنها لا تتجاوز فى لندن منتصف السابعة · ولابد ان والدتك مستغرقة الآن فى النوم ، هى وجداك ! أما بعد الظهر فيجب أن تذهب لزيارة مستر شابلى عميد معهد العميان · وان كان

المفروض ألا تبدأ العمل هناك الا بعد عطلة عيد الميلاد • وستحب هذا الرجل كثيرا ، لأنه كان من أصدقاء جدك فى صدر شبابه ، ومن معارف أبيك عندما كنتم مقيمين فى يافا • أما صديقك « أمين » الأعمى فهو يقوم بالتدريس هناك الآن • وقد فهمت من مستر شابلى انك ستقيم معه فى مسكن واحد من مساكن المعلمين • »

وعندئذ سأل وليد : « أهى مدرسة المكفوفين القائمة على سفح التل المشرف على طريق الخليل عند مشارف بيت لحم ؟ »

– أجل • وهى أكثر من مدرسة وأكثر من معهد ، لأنها تعلم الفتيان المكفوفين الصنائع المختلفة ، وتدربهم على التكيف بالحياة الاجتماعية الايجابية • وأعتقد أن أنطون سيجد فى ذلك خبرة نافعة طريفة •

– والموقع مناسب أيضا كى يقوم بزيارة الخليل كلما شاء•

فقال خليل داود : « ان من يقومون بمثل هذا العمل لا يجدون وقت فراغ » •

– سنقنع بما هو ممكن •

قال وليد ذلك وهو ينظر الى أنطون نظرة جانبية ذات معنى، ولكن أنطونا كان فى شغل عنه بالنظر الى ثريا وهو فى حالة انتشاء • ولما فطن وليد الى ذلك ، ثبت نظره الى الأمام فى الطريق التى تتلوى هابطة صوب أريحا ، وقد علا وجهه القطوب ، ولم يفتح فمه بكلمة الى أن اقتربت السيارة بهم من غاية الرحلة •

وما ان وقع نظر أنطون على جبل التجربة حتى هتف : «هذا هو ! كما تصورته تماما طيلة هذه المدة ! » •• ثم التفت الى وليد وقال فى لهفة : « هيا بنا نرتقيه بعد الظهر على سبيل الذكرى » •

فذكره زوج عمته : « انك ستزور بعد الظهر مستر شابلى» •

ـ نرتقيه غدا اذن ! يجب أن يقضى وليــد الليلة معنا ثم نصعد الجبل غدا صباحا فى ساعة مبكرة ، قبـل الشروق · وفى وسعنا أن نأخذ معنا طعاما فنفطر ونتغدى هناك فـوق القمة · ما رأيك فى هذه الفكرة ؟

ـ فكرة عظيمة ! وأنا سأقضى الليلة فى بيت زوج عمتك بالفعل ، لأنه تفضل فـدعا ثريا ودعانى للمبيت ، كى نحضر الحفلة التى سيقيمها الليلة احتفالا بعودتك ·

وانتهز وليد فرصة التفات خليل الى ثريا ليقول لها شيئا ، فهمس فى اذن صديقه : «وسيكون الغد فرصة طيبة للحديث !»

ووصلت السيارة الى بوابة (دار السلام) · وكان الخـادم الذى فتح البوابة لهم هو بعينه الذى عرفه أنطون فى صباه ، وقد رحب بأنطون أجمل ترحيب بعباراته الساذجـة · ولـما اقتربت السيارة من شرفة البيت ، رأى أنطون الأسرة بأكملها مجتمعة هناك ، فيما عـدا نصرى ·· وكان عمـه فريد أول المبادرين الى الترحيب به · وبوغت أنطـــون بازدياد الشبه بين عمه وأبيه ! ·· فهو قد اكتسب شيئا من البدانة ، واندلع الشيب فى شعره ، فغدا أشبه ما يكون من الناحية البدنيـة ببطرس · أما زوجة عمه « ماجدة » التى كانت مائلة الى البدانة طول عمرها ، فقد أصبحت الآن بدينة جدا حقا ، بيــد ان ابتسامتها ظلت دافئة ، ومودتها دافقة ·

وعمته « منى » ازداد وزنها أيضا ، ولكن فى الحـدود التى زادتها وقارا ، ولم تقلل من وسامتها الشديدة ، وقــد ذكرت أنطونا أيضا بأبيه ·

ونادية ! ·· ابنة عمه ·· كأن السنوات الأربــع لم تكن بالنسبة لها أكثر من أربعة أيام ، فجمالها كما هو ، ولم يظهر عليها أى أثر للسن ، وأطفالها الثلاثة يحفون بها ، ومن الواضح أن رابعهم سيبرز الى الوجود بعد وقت قصير !

وبنات العمة ازداد طولهن ، ولكنهن لم يزلن على حيائهن ، وان كانت كبراهن شديدة الاحتفال بالأناقة . وكففن عن عادتهن في الضحك العصبي لسبب ولغير سبب !

وقبل أنطون يد عمته وزوجة عمه ، ونادية ، ثم أقبل الطاهي يوسف ومن ورائه زوجته لتقديم مراسم الترحيب بابن السيد القديم ، والدموع تترقرق في عيونهما . وبعد ذلك قام يوسف بمعاونة خادم آخر بتقديم الأشربة الباردة ، في حين كانت المروحة الكهربائية الكبيرة تحرك الهواء الساخن ، وقد استقر الجميع في كراسي الخيزران الضخمة ، ورائحة أشجار الياسمين ، التي تحف بالشرفة ، تملأ الجو بعبير مترف.

ولما رأى أنطون ثريا ونادية جالستين معا ، نهض ووقف بجوارهما ، وقالت ثريا وهي تقلب عينيها في الحديقة الجميلة المنسقة ، بما فيها من أشجار النخيل العالية ، ونبات « الجهنمية » وخمائل البرتقال : « ما أجمل كل شيء هنا ! لقد حضرت الى (أريحا) كثيرا ولكن لم يخطر ببالي ان مكانا جميلا كهذا يكمن متواريا عن الأنظار بعيدا عن الطريق . ان هذه الدار تستحق اسم دار السلام حقا ! »

وابتسم أنطون مسرورا ، وقال : « كان أبي يحب هذه الدار كثيرا ، ويهفو اليها دائما كلما ابتعد عنها ، فهي واحته التي ينشد فيها الطمأنينة والسلام . وكان يروى لأصدقائه دائما ، كيف شعر لأول مرة بالحب لأمي في هذا الموضع . وفي هذه الدار أيضا قضى آخر أيامه ، ولفظ آخر أنفاسه » .

فقالت الفتاة ، متلطفة : « كنت أعرف هذا ، ولكنني لم أكن أعرف ذلك الجانب الرومانسي من قصة حب أبيك وأمك . ولا شك أن هذا يزيد من سحر المكان وجماله ! »

ونظرت بنت عمه نادية اليه نظرة ذات معنى وقالت : « لماذا لا تطوف مع ثريا لتريها أرجاء البيت ؟ »

– بكل سرور ، ان هي شاءت !

وعلى الفور نهضت الفتاة وسارت معه • وما ان دخلا من باب الشرفة وصارا وحدهما ، حتى نازعت أنطونا نفسه الى أن يتناول يدها في يده ، ثم تذكر انها عربية ، وانهما في فلسطين وليسا في انجلترا ! وان حسبهما من اجتراء على العرف السائد ان يطوفا بالحجرات معا ، وليس معهما ثالث ••

وألفى البيت على حاله على حد ما يذكر • فالأبسطة العجمية الجميلة الفاخرة التي يعرفها جيدا ، لم تزل مفروشة فوق الأرض المبلطة بالرخام ، في الحجرات الواسعة • وهذه حجرة المكتب الكبيرة الخاصة بالكتب ، وهذه هي كتل الأخشاب تملأ المدافىء لاستخدامها في الليالي الباردة ، على نحو ما كانت تصنع أمه من قبل • **وها هي زهرية تتوسط مكتب أبيه الصغير في حجرة النوم التي مات فيها • وعلى رأس السلم طالعته الصورة النصفية التي أوصى أبوه فنانا من القدس أن يصنعها لأمه في باكورة زواجهما** • ولم تكن أمه راضية عن هذه الصورة فتركتها لخليل • وأسعده أن يجد زوج عمته قد احتفظ بها في مكان الشرف المعهود عند رأس السلم • وقال لثريا :

– هذه أمي في شبابها • وكنت في الثالثة من عمري عندئذ – فلست أذكر شكلها في تلك الأيام ، وما كنت لأعرف انها لأمي – ولكن أبي كان يحب هذه الصورة • وزوج عمتي خليل يحبها أيضا •

وعلى هذا النحو مضيا يتجاذبان أطراف الحديث والتعليقات في سهولة ويسر ، وهما يتنقلان بين الحجرات ، حتى وصلا الى حجرته السابقة ، ونفذا منها الى الشرفة الواسعة التي تطل على جبل التجربة • وعن كثب من سفحه كان يقوم معسكر للاجئين ضربت فيه الخيام صفا وراء صف ، في ألوف يخطؤها الحصر !

ووقفا كلاهما في الطرف الأقصى للشرفة ينظران الى خمائل البرتقال ، وقد عبقت الجـو أزهاره الفواحـــة تحت الشمس الساطعة • وأخذت الفتاة تملأ صدرها من ذلك الهواء العطر ، منتشية بجمال المنظر ، وعندئذ قال لها أنطون : « ها هنـا وقف أبى الى جوار أمى على انفراد لأول مرة ، حين صارحها بأنه يتمنى أن يتزوجها • ومن بعد ذلك اليوم صار هذا المكان أحب بقعة فى الدنيا الى نفسه • وكانت هذه الشرفة مكانهما المفضل هو وأمى ، الى أن أقعده داء القلب عن صعود السلم ، فصـار ينام فى الطابق الأسفل ، ولا يبرحه • كم أتمنى لو أنه عرف أننى عدت الى هنا ! »

— بل لعله يعرف !

— لعله •

وبعد لحظة تردد قال لها : « هـل فى وسـعنا أن نلتقى أحيانا ؟ فى (رام الله) مثلا ، فى بيت عمتى وعمى ؟ »

— انى أتوقع فى مدة وجودى هنا — وكلما منحتنا الجامعـة عطلة ، كعطلة الفصح مثلا — أن أزور بنات عمتك • ولكنك ستكونَ مشغولا بعملك فى بيت لحم •

— فى وسعى أن أتدبر وسيلة للذهاب الى رام الله بين الحين والحين •

ولاحظ انها مشيحة عنه بنظراتها فى ارتباك ، فقال : « لو كنا فى انجلترا لكان من اليسير جدا أن نتفق على التلاقى لنقوم معا بنزهات على الأقدام فى المتنزهات والخلوات • أما هنـا فالوضع مختلف جدا • »

وعندئذ التفتت اليه وابتسمت ابتسامة عريضة ، وقالت : « نعم • جدا • ولكن بعض النـاس يستطيعون تدبير فرص اللقاء من غير أن يصطدموا بالعرف السائد • وأنا واثقة اننـا نستطيع تدبير ذلك لو اتفقت رغبتنا فيه • »

ـ ما أشد رغبتي فى ذلك · فهل أنت راغبة أيضا فى أن نلتقى ؟

ـ أجل · أما الآن فيجب ألا ننسى العرف السائد ، وعلينا أن نسرع بالعودة الى حيث يجلس الباقون ·

ـ أعتقد هذا ، وان لم يكن فيه هواى !

وغادرا الشرفة عائدين الى الدار · وفى هذه المرة صنعا كلاهما شيئا واحدا على غير اتفاق سابق : **فحينما كانا يمران فى الحجرات بفراش ، كان كل منهما يغض بصره ويسرع الخطو متباعدا عن الآخر بعض الشىء ، وان كان احساس كل منهما بصاحبه قد ازداد شدة وعمقا !**

- ٢ -

وفوق قمة جبل التجربة ، وبين أزاهير (الآذريون) البرية الصفراء العطرة ، استلقى وليد حسين على بطنه وراح يتحدث حديثا طويلا الى أنطون الذى جلس مسندا ظهره الى صخرة ، ومرسلا طرفه عبر الوادى العريض الذى ترتفع فى جوه أشجار النخيل الباسقة ، وأشجار الزيتون العريقة ، وتفترش أديمه — لاصقة بالأرض — بيوت أريحا البيضاء .

— لقد حدثت أمور كثيرة منذ غادرتنا ، ولكن الوضع فى جوهره لم يتغير . فالملك عبد الله قتل كما تعلم ، وابنه الملك طلال نزل عن العرش وتولاه الملك الشاب حسين . ولكن فلسطين المحتلة لم تزل على حالها مغصوبة محتلة . **وفى كل عام تطفو القضية الفلسطينية على السطح فى جدول أعمال هيئة الأمم المتحدة بجمعيتها العامة ، وينتهى الأمر دائما بتأكيد حق اللاجئين فى التوطن ، ثم يقف الأمر عند هذا الحد . فلا اللاجئون يستردون وطنهم ، ولا يبدو ان هناك أملا فى أن ترد اليهم هذه المنظمة وطنهم . فلن يحدث شىء حاسم فى قضية فلسطين الا اذا صنع الفلسطينيون أنفسهم هذا الشىء .** هذه حقيقة نعرفها جميعا . ولكن المشكلة كلها تنحصر فى ايجاد الوسيلة المؤدية الى ذلك . وما أكثر ما يقوله من يسمون أنفسهم بالعقلاء من أن العودة الى الوطن حل غير عملى ، واننا يجب أن نكون « واقعيين ، عمليين » فنقبل الوضع الراهن ، أى نقبل تحول ثلثى فلسطين العربية الى دولة لقيطة اسمها اسرائيل ! .. فنوافق بذلك على ضياع شخصيتنا القومية ،

ونتحول من أمة متميزة مستقلة ، الى حشود من الأفراد مشتتين فى بلدان تستضيفنا • فالتنازل عن الوطن معناه ضياع القومية ولا مراء • **فهل فى وسعنا أن ننسى الى الأبد أننا فلسطينيون ، ونمضى فى الحياة المشردة بقلوب مطمئنة ، حتى ينسى الناس قضيتنا الوطنية بعد أن نسيناها نحن ، ونتحول من شعب مظلوم الى شعب منسى ؟ !**

وكان صوته وهو يتكلم يقطر مرارة •• ثم اعتدل فى جلسته واكفهر وجهه من فرط الغضب وهو يستطرد قائلا :

ـ وهناك آخرون ينادون بأن دولة اسرائيل انما هى مرحلة عابرة من مراحل التاريخ ، وان هذا الاحتلال الغاصب سينجاب عن فلسطين بصورة طبيعية ، كما انجاب عنها سلطان الامبراطورية البريطانية • وأصحاب هذا الرأى من المؤمنين بالنظرة التاريخية الى الأمور • ويطيب لهم أن يقولوا لك ، **كيف انتهت امبراطورية الفرس بعد ازدهار ، وكيف انتهت امبراطورية الرومان بعد رسوخ وانتشار ، وكيف انتهت وريثتها الامبراطورية البريطانية وكانت الشمس لا تغرب عن أرجائها فى ليل أو نهار ، وكيف قام الرايخ الثالث وأوشك أن يسيطر هتلر على العالم أجمع ثم لم يلبث أن انهار •• فما علينا للتخلص من اسرائيل سوى طول الانتظار !** وهو كلام لا يقوله الا من يملكون كل شىء ، فهم فى أوطانهم مستقرون ، وفى ديارهم آمنون موفورون ، وما عليهم بعد ذلك أن يطالبوا المشردين المحرومين المغصوبين بالصبر والأناة الى أن تنقضى الحياة ، ولا خسارة على الناصحين ، ولا كسب للمنصوحين ، وانما الكسب فى الحقيقة لأولئك الذين من مصلحتهم استقرار الأمور وعدم نشوب القلاقل ، ولو دفاعا عن حق ، أو دفعا لعدوان على الحياة • وأحسب انك التقيت بالكثيرين من طراز أولئك الناس أثناء اقامتك الطويلة فى انجلترا •

– نعم ٠ وكثيرا ما ضاقت أنفاسى بهم !

– هذا حالك وأنت مقيم فى النعمة والعافية ، بين أهل أمك فى تلك البلاد البعيدة ، فما بالك بالذين يعيشون فى الخيام البالية ولا مورد لحياتهم الا ما تجود به عليهم أكف المتصدقين تحت اسم « هيئة اغاثة اللاجئين » ، وانه لفتات لا يسمن ولا يغنى من جوع !

وسكت وليد قليلا ثم أردف :

– ان لى صديقا يعمل فى معهد المكفوفين الذى ستعمل به أنت ، واسمه « طالب حمادى » ٠ وقد تعرفت به منذ سنتين ، وكان يومئذ يعيش فى معسكر اللاجئين الكبير بالقرب من (بيت لحم) ٠ وكنت قد ذهبت لزيارة ذلك المعسكر فى صحبة عمى مدير البنك ٠ وطفنا بأرجائه ومعنا المشرف ومندوب لجنة الاغاثة ، وكان طالب حمادى أحد الذين تحدثنا اليهم لاستطلاع الأحوال ، فألفاه عمى شخصا ذكيا متوقد الذهن ، ثابت الجنان ، طلق اللسان ٠ فأعجب به ، وسأله ، أفلا يحب أن يلتحق بعمل خارج نطاق المعسكر فيتسنى له أن يعيش بعيدا عنه فى ظروف أفضل من هذه الظروف ؟ وكانت سن طالب وقتئذ ثمانى عشرة سنة ٠ فأجاب لأول وهلة بالرفض ، لأن قبوله سيترتب عليه انقاص مخصصات المعونة لأسرته ، بيد أن أباه انتهره وقال ان من الغباء افلات مثل هذه الفرصة٠ وهكذا حصل عمى لطالب على ذلك العمل فى معهد مستر شابلى ٠ وفى العام الماضى تزوج من احدى فتيات المعسكر ، وهى لم تزل مقيمة به ، مع انه يقيم مثل سائر مدرسى المعهد فى المستعمرة الملحقة بالمعهد نفسه ، لأنها فضلت البقاء مع أسرتها ٠

– وكيف يستقيم هذا الزواج ؟

– انه ينتهز أى فترة فراغ مدتها ساعة أو ساعتان لينطلق

الى المعسكر على متن دراجته كى يرى زوجته ويجالسها قليلا ٠ وقد صارحنى بأن المعيشة فى المعهد تتوفر لها وسائل الراحة الى أقصى حد ٠ وان الغذاء فى نظره على الأقل ممتاز ٠ وان الجميع هناك يعاملونه أكرم معاملة ٠ ومع هذا فهو لم يزل يشعر باستمرار ان بيته الحقيقى فى ذلك المعسكر بين أبناء عشيرته ٠ **وهذا هو ما يسمى الآن بعقدة الالتجاء ٠ أو العقلية الخاصة باللاجئين ٠ وزوجته تنتمى الى هذه العقلية أيضا ٠ ولذا ترفض أن تستقل بمعيشتها مع زوجها فى مسكن خاص ببيت لحم** ٠ وكلنا هنا تقريبا ننتمى الى هذه العقلية ، حتى من لا يعيشون منا فى المعسكرات ، مثلى أنا الذى أعيش فى بيت عمى مدير البنك – حين أكون هنا – أو فى مساكن الجامعة ببيروت أثناء السنة الدراسية ٠ وحتى انت – وقد عشت عيشة مختلفة جدا عن معيشة المعسكرات فى انجلترا ، بين والدتك وجديك – الا انك كنت تواقا طوال الوقت للعودة الى هذا البلد ..

– ان هذه الفكرة لم تفارق ذهنى لحظة واحدة !

– وكذلك الحال بالنسبة لى وأنا فى بيروت ، مع اننى سعيد جدا بالفرصة التى أتيحت لى كى أتلقى العلم هناك ٠ ولكن بيروت ليست وطنى ، ولا أشعر بقوميتى كما أشعر بها هنا ، فى الأرض التى كانت تسمى فلسطين ، ويجب أن تسمى بهذا الاسم على الدوام ٠

– ولكن ماذا عن صاحبك « طالب حمادى » ؟

– انه يتمتع بمزية بارزة بالنسبة لمشروعنا ، فهو من بئر سبع ، وهو متلهف أشد اللهفة على العودة اليها ، لأن له أخا لم يزل مقيما هناك ٠ وقد استطعت اقناعه بوجوب **تكوين** نواة للمقاومة الفعالة السرية هناك ، داخل الأرض المحتلة نفسها ٠ والى أخيه هذا سنتجه عند تسللنا ، وسيكون « طالب » معنا ٠

وتسارعت دقات قلب أنطون . فطريق بئر سبع لم تكن قبل ذلك سوى حلم من الأحلام ، أقرب الى الرمز منها الى الواقع ، ولكن ها هو الحلم يتحقق فى صورة مادية ، على حين غرة !

ونظر أنطون من فوق قمة جبل التجربة ، كأنه يريد أن يرى تلك الطريق الملتوية التى تبدأ من الخليل وتتعرج فى مسيرها عبر حدود التقسيم ، وان هى الا بضعة أميال حتى تكون قد أفضت الى بئر سبع . انهما على هذه الطريق سيدرجان معا . هذا هو الواقع الذى بات ملموسا لأنطون ، كواقع وجوده الآن على قمه جبل التجربة مع وليد ، وكواقع هبوطهما عنه بعد قليل ليستردا دراجتيهما من الدير فى منتصف السفح .

وسأل أنطون وليدا وهو يجتهد أن يبدو غير مضطرب النفس بما جاش فى صدره من انفعالات عنيفة : « وهل يعرف طالب أرض تلك المنطقة جيدا ؟ »

ـ خير معرفة . فقد كانت لأبيه أرض زراعية فى الوادى من وراء (الظهيرية) ، وله فى القرية أبناء عمومة ، مما سيساعده على الوصول الى تلك المنطقة .

ـ وهل لم يزل الوصول الى هناك محفوفا بالصعاب ؟

ـ الغرباء عن المنطقة لابد لهم من ترخيص بالمرور ، وسيكون فى وسعنا أن نحصل على الترخيص بسهولة عن طريق عمى . أما طالب فقد يجازف بركوب السيارة العامة ان خضر أحد أبناء عمومته حتى يتسنى له اثبات شخصيته عند اللزوم لدى الشرطة ، ذلك أن رجال الشرطة يقومون أحيانا بالتفتيش على الركاب ومراجعة هوياتهم ـ (بطاقاتهم الشخصية) ـ ليتأكدوا من عدم وجود غرباء بينهم ، فان وجدوا بينهم غريبا كان عليه أن يثبت قرابته لأحد من سكان (الظهيرية) ، ولذا يستحسن أن يكون معه أحد أقاربه بالفعل . وأنا شخصيا كثيرا ما ذهبت

مع عمى كلما حضر الى الخليل • وعلى كل حال لم يعد الأمر عسيرا كما كان فى سنة ١٩٤٩ ، ومع هذا ستكون انت بحاجة الى ترخيص •

– وما هى خطتك ؟

– خطتى أن أقضى العطلة كلها هناك فى فصل الصيف القادم، كى أتعرف على أرض المنطقة تعرفا تاما • سأقضى النهار بطوله فى الحقول مع عمى ومع سعيد ومع الجد ، وفى كل يوم سأوغل الى مسافة أبعد ، وأنا أعمل فى الزراعة ، من غير أن أتجاوز خط الهدنة • وسيقوم طالب برسم خريطة تفصيلية للمنطقة •

– وكم من الوقت ستقضيه فى بئر سبع ؟

– ربما قضيت هناك بضعة أسابيع ، أما أنت وطالب فلن تقضيا هناك سوى بضعة أيام ، لأن العطلة الصيفية فى معهدكم شبه معدومة •

– سيكون عليك اذن أن تعود وحدك !

– لن يكون هذا عسيرا ، لأنى فى هذه الحالة لن أكون مشغول الذهن بمصير من معى • هل تشعر أنت بتوتر أعصابك فى مثل هذا الموقف يا أنطون ؟

– أجل • ان المسألة برمتها تبدو لى الآن هائلة ، وقد أوشكنا على تنفيذها • وليس معنى هذا طبعا انى لا أريد أن أقوم بالمهمة ، فقد قضيت السنوات الأربع فى انجلترا وهى شغلى الشاغل !

– ان وصولنا الى بئر سبع سيكون له أكبر الأثر فى الفلسطينيين هناك ، ولا سيما حين يرون شابا مثلك جاء اليهم خصيصا من وراء البحار ، وثق أن من بين المسنين هناك من يذكرون أباك ومواقفه الوطنية •

– هل من المعروف عدد الفلسطينيين فى الأرض المحتلة ؟

– نحو خمسة وسبعين ألف فلسطينى يعيشون تحت نير

اسرائيل ، ويعاملونهم على أساس انهم « مواطنون من الدرجة الثانية » . وليست بئر سبع كما تعلم سوى البداية . مجرد نواة للمقاومة السرية التى يجب أن تنشأ فى كل قرية ومدينة فى الأراضى المحتلة لم يزل بها عرب . وقد آثرنا الابتداء ببئر سبع لأنها موطنى الأصلى وموطن طالب . ولابد لنا مستقبلا من وحدات من الفدائيين مدربين أحسن تدريب، على طول الحدود ..

– الحكومات وحدها هى التى تستطيع هذا !

– وأى حكومة هى التى أعدت جيش ايرلندا الوطنى السرى الذى كافح الانجليز بعد تقسيم ايرلندا ؟ ومن الذى أعد جيش المقاومة الفرنسى عند تقسيم فرنسا الى محتلة وغير محتلة بعد الغزو النازى ؟

ثم نظر وليد فى ساعته وقال : « يحسن أن نعــود الآن ، فقد وعدناهم فى الدير أن نعود فى الساعة الرابعة » .

- ٣ -

كتب أنطون عددا من الرسائل الى أهله فى انجلترا ، والى صديقه مستر جونز ، وأرسل بطاقات ملونة الى لندلى ٠ وكان معظم حديثه الى والدته عن ثريا : « لقد أعجبت ثريا كثيرا بدار السلام ، وقد طفت بها أرجاءها وشرفاتها ٠ ووقفنا وقفة طويلة فى الشرفة العلوية التى تطل عبر البستان على جبل التجربة. **وأحسست وهى واقفة هناك معى ان التاريخ يعيد نفسه ، كما حدث فى أول مرة وقفت أنت فيها هناك مع أبى** ٠٠ ولم تسنح لى الفرصة كى أراها بعد ذلك لأنها غادرت (أريحا) فى الصباح الى (رام الله) لقضاء عيد الميلاد مع ذويها هناك ٠ وفى نهاية الشهر ستكون قد غادرت رام الله عائدة الى بيروت لاستئناف دراستها ٠ كم وددت لو انها لم ترحل !

« ٠٠ وقد ذهبت لزيارة مستر شابلى فى يوم وصولى بعد الظهر ، فى صحبة زوج عمتى خليل الذى كان يقود السيارة ، وذهب معنا وليد ، وبذلك سنحت لى الفرصة كى أقدمه الى أمين الذى يحتفظ الآن بشارب أسود كث مثل وليد ، ويعلم الأشغال اليدوية للمكفوفين فى المعهد ٠ وقد طاف بى « أمين » أرجاء المعهد وملحقاته ، ومستعمرة المساكن التى يقيم بها المعلمون ، وأرانى الكوخ الصغير الذى سأشاركه فيه عندما أتسلم العمل ٠ وكل شىء فى داخل هذا الكوخ الصغير أبيض، أجرد ، والأرض الحجرية عارية والأثاث بسيط جدا وفى أضيق الحدود الممكنة ٠ فكل شىء هنا هو الحد الأدنى للوازم المعيشة الضرورية ، من غير نظر الى وسائل الراحة أو الترف بطبيعة الحال !

« وليس بيت مستر شابلى أحسن حالا من بيوت المعلمين . وكل ما يتميز به هو تلك الكميـة الضخمة من الكتب التى يملكها ، وهو رجل طويل القامة ، نحيلها ، أشيب الشعر ، رقيق الجانب غاية الرقة ، يفيض دماثة وعطفـا وحنانا على تلاميذه ومرءوسيه . وأمين يقول ان الجميع هنا يحبونه لأنه فى الواقع انسان منكر لذاته كل الانكار . وهو شديد الاعجاب بالمهاتما غاندى . قال لى أمين ذات مرة ان هذا الهندوسى أشد مسيحية من الكثرة الغالبـة ممن ينتسبون الى المسيح بالاسم والعنوان . بل انه يعتبر المهاتما غاندى أعظم ممثل للمسيحية فى العصور الحديثة .

« والمعهد فى الحقيقة أقرب الى الجاليـة التى تعيش على أسلوب تعاونى مشترك منه الى المدرسـة . بل ما أشبهه بمستعمرة من حيث انه يتألف من مجموعة من الأكواخ للاقامة، ومزرعة صغيرة ، وحديقة لانتاج الخضر التى تباع فى سوق البلدة ، وعدد من الورش ، ومصنع صغير للنسيج .

« ومستر شابلى لم يتزوج . ويزعم أمين أن ذلك أثر من آثار اعجابه بفلسفـة غاندى . وفى المستعمرة أيضا سيدة انجليزية هى الآنسة « ريس » ، وتقـوم بمهمة مدبرة البيت والأم لجميع من فى المستعمرة ، وهى التى تعنى بثياب التلاميذ المكفوفين ، وتشرف على أعمال الغسيل التى تقوم بهـا فتيات من اللاجئات المقيمات فى المعسكر القريب .

« والآنسة ريس فى نحو الستين من عمرها فيما أعتقد ، وقد حسبتها لأول وهلة حادة الطبع ، ولكن أمينا قال لى أنها طيبـة القلب ، وأن ما حسبته حدة طبع انما هو فى الواقع صراحة واستقامة فى التعبير ، وانها ذات عقل عملى . وهـذا الجانب من الخير أن يتوفر فيها ، لأن مستر شابلى رجل حالم ولا يصلح لمعالجة المسائل العملية . وقد أخبرتنى الآنسـة

ريس أنها كانت تعمل تحت امرة جدى فى يافا ، وانها ترسل اليه بتحياتها •

« والتلاميذ المكفوفون منهم من يقيمون فى المعهد بالقسم الداخلى ، ومنهم تلاميذ بالقسم الخارجى يحضرون يوميا فيما عدا يوم الأحد • وتتولى الآنسة ريس احضارهم فى عربة المدرسة • ومستر شابلى هو الذى يلقى دروس اللغة الانجليزية عليهم ، وسأتولى مساعدته فى هذه الدروس على أمل أن أتولاها نيابة عنه بصفة شاملة فيما بعد • »

***

والحقيقة أن ماريان لم تسترح لما ورد فى الخطاب بشأن الفتاة ، وان كانت تعرف عائلة « سابا » معرفة يسيرة • وهى على يقين من أن ثريا فتاة مهذبة حسنة التربية ، يمكن أن تنجح فى « كشف الهيئة » أمام نظرات « الزبيث » الفاحصة ، وبمقاييسها الاجتماعية الصارمة • ولكنها كانت تريد لأنطون ألا ينشىء علاقة تربطه ببلاده العربية ، وتجعل اقامته هناك تمتد مستقبلا الى أكثر من هذه السنة التدريبية •

ثم ماذا يكون الحال ومن المفروض فى ختام هذه السنة أن يعود أنطون الى لندن ليدرس فى مدرسة العلوم الاجتماعية والاقتصادية مدى سنتين على الأقل ، فى الوقت الذى لابد فيه للفتاة نفسها من قضاء مدة أطول من هذه فى اتمام دراستها الطبية بجامعة بيروت الأمريكية • **فالصورة العامة لأطراف هذه العلاقة ، لا تبشر الا بأنواع من الفرقة والقلق والحرمان ••**

وناقشت ماريان الأمر مع أبيها ، ولكن الرجل العجوز المجرب رفض أن يجاريها فى هذا القلق ، وقال انها تزعج نفسها بأمور لم تزل فى طى الغيب : « دعى الفتى يستمتع بهذه العلاقة الحالمة خلال السنة التى يقضيها هناك ، ولا تنسى أن مثل هذه العلاقة ستشغل ذهنه عن كل هراء من قبيل

التسلل وراء خطوط الهدنة مع صاحبه وليد . حتى اذا عاد الى لندن ، استغرقته حياة جديدة فى الجامعة ، وتنتهى هذه العلاقة نهايتها الطبيعية . عن طريق الذبول والتلاشى . فأكبر الظن أن عودته الى انجلترا ستصل أسبابه بأسباب الحياة الانجليزية ، فيتزوج فى النهاية فتاة انجليزية . ومتى تم هذا فهو لن يفكر فى العودة الى فلسطين . »

ـ أخشى يا أبى أن تكون متفائلا أكثر مما ينبغى . **فأنطون ابن أبيه أكثر مما تتصور . وقد ظلت انجلترا بالنسبة له « أرض المنفى » ، كما كانت حرية أن تكون بالنسبة لبطرس لو أنه كان هنا معنا تلك السنوات . فالعودة الى فلسطين فى احساس أنطون هى العودة الى الوطن . وميله الى هذه الفتاة ثريا راجع الى حد كبير الى أنها تمثل ببشرتها الحنطية طينة بلاده وشمسها** . فارتباطه بها هو ارتباط الجذر بالتربة التى ينمو فيها ويتأصل . ولذا اعتقد أنها ستجذبه الى الشرق بحيث يعسر جدا انتزاعه من هناك ليعود الى أحضاننا .

وهز روبرت ملبى كتفيه وقال بهدوء : « ليكن ما يكون . فالفتى ينبغى أن يحقق ذاته على الطريقة التى تستقر بها نفسه ويرتاح اليها تفكيره . »

ـ هذا شىء لا أمارى فيه . وان كان يسبب لى ألما شديدا . ولكننا لا نصوغ أولادنا على ما نهوى . وسأكتب اليه اليوم وأبعث اليه ببركتى ..

ـ ولا تنسى بركتى أنا أيضا . « أعطنا اليوم . خبزنا كفافنا . » يوما بيوم . وغدا يوم جديد يفرض نفسه ، ولا حيلة لنا فى تحويله أو التنبؤ به . هذه فلسفة لم تزل صالحة لتسيير أمور البشر فى كل حين .

***

ولم يكتب أنطون الى والدته شيئا عن تفاصيل حياته بعد ذلك ، وان كان قد وصف لها احتفالات عيد الميلاد فى دار الأصح الرقيبات من بنات عمته ! وأن ثريا لم تكن تجذب السلام ، وفى رام الله • ولم يذكر لها كيف حرص على لقاء ثريا قبل عودتها الى بيروت ، وكيف كانت يداهما تتشابكان خلسة فى الحين بعد الحين ، كلما أمنتا أعين الرقباء — أو على الأصح الرقيبات من بنات عمته — وأن ثريا لم تكن تجذب يدها الا بعد برهة طويلة وهى ترمقه بابتسامة وضيئة •

والحقيقة أن بذور القلق العاطفى أخذت تنمو فى نفسه بسرعة بعد أعياد الميلاد ورحيل ثريا • **وكثيرا ما كان يختلط عليه الأمر وهو يحلم ، فيرى روزا بين ذراعيه فى قاعة السينما المظلمة • وقد التقمت شفتيه فى شفتيها كما كانت تفعل ، فيستيقظ من نومه مرتجفا وتفيض نفسه بالأسى والشجن ، ثم يتضح له بعد قليل أن ذلك الأسى ليس حنينا الى روزا بالذات ، وأن صورتها فى الحلم لم تحدث له الا اضطرابا جسديا عضويا ، أما حنينه العاطفى فالى الفتاة المقيمة فى بيروت !**

وكان يؤلمه أن عطلة عيد الفصح لن تحل الا بعد وقت طويل • ولا بد له من الصبر • ولكنه صبر يزيد عاطفته الوليدة اشتعالا ••

- ٤ -

شعر أنطون لأول وهلة أن « طالب حمادى » لا يمنحه ثقته ، رغم التزكية الحارة التى أضفاها عليه صديقه وليد ، فهو ينظر نظرة تشكك الى الدماء السكسونية التى تسرى فى عروقه مختلطة بالدماء العربية . ولذا لم يكن راغبا فى اشراكه معهما فى عملية بئر سبع ! .. يضاف الى هذا أن طالبا من أسرة فقيرة أشد الفقر ، وكاهله مثقل أشد الاثقال بمسئولياته العائلية . وقد علمته مرارة التجربة فى معسكر اللاجئين ألا يثق بالطبقة الغنية من الفلسطينيين ، لأن الظروف لم تقس عليهم الى الحد الذى يتضورون فيه جوعا أو يعيشون على فتات الصدقة كما يعيش ذووه مع ألوف من نظرائهم فى تلك الخيام . **وقد زادت هذه المرارة رسوبا فى نفسه بعد أن أودى سوء التغذية وبرد الشتاء وضآلة الكساء بحياة أبيه – على أثر التهاب رئوى فى ثانى شتاء قضته الأسرة فى ذلك المعسكر الرهيب** – وهذه النار المتأججة فى نفسه هى التى جعلته شديد التحمس لفكرة التسلل الى (بئر سبع) عندما فاتحه فيها وليد . فهذه الفكرة هى المتنفس الطبيعى الذى كانت تحتاج اليه نفسه الساخطة !

و « طالب حمادى » شاب طويل القامة ، عريض الكتفين ، وسيم المحيا ، لولا أنه دائم العبوس ، ضيق الصدر ، لا يميل للمجاملة . وقلما رآه أحد باسم الثغر منبسط النفس كسائر الناس . ولبث متحفظا جدا فى علاقته بزميله الجديد أنطون . وكان أول ما خطر لأنطون فى تعليل ذلك ، أنه يشعر بالغيرة



.. وفى المطار ، انتظر مع المنتظرين أمام الحاجز ..
وتقدمت منه « ثريا » على استحياء ، وسألته :
« ألا تذكرنى ؟ »

منه لأنه اقتحم عليه استئثاره بصديقه وليد . ثم بدأت الحقيقة تتكشف له رويدا رويدا . فلم يحاول بعدها أن يكتسب صداقته ، واكتفى بصداقة صاحبه القديم أمين .

وأمين - على عكس « طالب » - دمث متواضع سهل القياد ، راض نفسه منذ زمن طويل على تقبل عاهته بغير تذمر ، وهو فياض النفس بالشكران والمودة على المعونة التى أسبغها عليه منذ صباه الباكر والد أنطون . **أما أنطون نفسه فهو أحب انسان فى الدنيا اليه ، وقد ظلت راسخة فى ذاكرته لمسة يد أنطون وهو قابض على يده طوال تلك المسيرة المشئومة من (اللد) الى (رام الله) تحت شمس الصيف المحرقة فى البرية .**

ولن ينسى أمين - ما عاش - اصرار أنطون على الاحتفاظ به الى جواره فى سيارة الأسرة عندما أقبل عمه فريد لاصطحابه . ثم اصراره بعد ذلك على استبقائه معه فى بيت آل داود ، وقد جدد هذا الاحساس لديه أن أنطونا أصر عندما شاركه كوخه أن ينقل سريره الى حجرة نوم أمين نفسها ليتسنى لهما السمر الطويل بعد ذلك الانقطاع !

ولكن أنطونا لم يخبر أمينا بما دبره مع وليد وطالب ، وان كان قد سأله عرضا عن رأيه فى انشاء طابور خامس داخل الأرض المحتلة ، تمهيدا لقيام حركة مقاومة مسلحة على نحو ما صنعه الفرنسيون أثناء الحرب العالمية الثانية بعد الغزو النازى . فاذا بأمين لايدرى شيئا عن الطابور الخامس أو حركة المقاومة الفرنسية . وكان أنطون قد عرف ذلك كله من مدرسه السابق مستر جونز ، فشرحه لأمين بحماسة أثارت اهتمام الشاب الأعمى ، بيد أنه لم يستطع أن يتصور نجاح المقاومة الفرنسية الا على أساس أن الحلفاء كانوا يمدونهم بالمساعدات والسلاح بطريقة أو بأخرى . ولكن هل هذه هى الحال بالنسبة لحركة المقاومة العربية داخل اسرائيل ؟..

انه يفهم بسهولة أن يتسلل العرب الفلسطينيون وراء خطوط الهدنة لزيارة ذويهم وديارهم خلسة ثم يعودون بعد اطفاء غلة أشواقهم الى مرابع طفولتهم ومراتع صباهم ٠ فهذه في تصوره عملية عاطفية عائلية ولا يمكن أن تكون حركة سياسية عسكرية ٠٠ وقد قال أمين رأيه هذا بصراحة ٠ وهو رأى أملته عليه ظروف نشأته وعاهته التى جعلته « مستطيعا بغيره » ، ولا يتصور قيام الانسان بأعمال خطيرة مستقلا بنفسه ، غير مستمد العون من أحد ٠

ومهما يكن من شيء فقد ظل أنطون وقتا طويلا ساهر العين والذهن بعد أن استسلم أمين للنعاس ٠ وراح يقلب الفكرة كلها فى ذهنه ٠ وخطر له أن وليدا وطالبا ربما كانا مدفوعين الى هذه العملية بحافز انفعالى يريد أن يجد متنفسا عمليا للسخط والرغبة فى المقاومة ، من غير نظر الى جدوى تلك المقاومة ٠ فهى أشبه بالصرخة التى يطلقها المكروب ولو كان يعلم أنه ما من سميع ولا مجيب !

وفكر فى أمر نفسه شخصيا ، وفى الدافع الذى يحفزه على المضى فى انفاذ تلك الخطة ، وتراءى له بعد امعان التفكير أنه انما يستجيب فى ذلك لصداقته القديمة بوليد ، ورغبة منه فى اثبات جدارته بتلك الصداقة ٠ ولفرط ما « عايش » تلك الفكرة ، استولت عليه بحكم الألفة ، بصرف النظر عن مبرراتها الذهنية ٠٠ ولكن حاله اليوم غير حاله بالأمس ٠ ولئن كانت فكرة التسلل هى منزعه العاطفى الأوحد يوما ما ، فلديه اليوم منزع عاطفى آخر يزداد يوما بعد يوما هيمنة عليه ، وهذا المنزع العاطفى يتمثل فى « ثريا سابا » !٠٠ **وما أشد المفارقة بين ذلك الحب الذى يكنه لثريا ، وما كان يكتوى به سابقا من الشوق الى روزا ٠ فشوقه الى روزا هو الشوق الى العناق الحار والداعبات المثيرة ودفء الأنوثة الدافقة ، أما شوقه الى**

ثريا فلا يتمثل له الا فى الجلوس اليها ، والنظر الى عينيها ، والتحدث معها • ولكن هذا الشوق على خلوه من سعير الشهوة ليس أقل سيطرة عليه من شوقه الى روزا يوم كانت علاقتهما فى ابانها ، ان لم يكن أشد ، لأن هذا الشوق نابع من وجدانه لا من غدده الصماء ، ومن عقله وشخصيته كلها لا من أحاسيس المراهقة الرعناء •

ولكم كان يحلم أحلام اليقظة فيراها وقد طارت من بيروت الى بيت لحم لتقضى معه يوما فى النزهة ، حيث يجلسان فى ظل شجرة تين عجوز ويرسلان الطرف معا عبر المروج الفيحاء ، حيث ترعى الحملان البيضاء أعشابا مزدانة بالسوسن !

وسأله مستر شابلى ذات يوم عن حاله ، وهل يشعر فى المعهد بالايناس والاستقرار النفسى ، وألفى أنطون نفسه يبتسم ويقول انه على خير ما يرام هنا ، مثلما كان يبتسم وهو فى المدرسة بلندن متظاهرا بالتأقلم والسعادة ، وقلبه فى واد آخر !•• ان العميد على رقته البالغة لم يشعره بالألفة العقلية • ولكنه وجد تلك الألفة الصريحة مع الآنسة « ريس » التى شعر بعد انقضاء أسبوعين على الأكثر انها تميل اليه وتألفه ، وكثيرا ما كانت تسرى عنه بعض وحشته بدعوته للركوب معها الى القدس ، كلما ذهبت الى هناك لشراء مستلزمات المستعمرة من الأطعمة وما اليها ، وكان هو خالى البرنامج من الدروس التى يلقيها فى اللغة الانجليزية والقراءة بطريقة « برايل » •• فكان عندئذ يرحب دائما بتلك الرحلات التى تدخل التغيير على نمط حياته الرتيب فى ذلك المكان ، ويجد فيها فرصا طيبة للانصراف عن تفكيره المتصل فى ثريا سابا •

وكثيرا ما نازعته نفسه أن يكتب الى ثريا جانبا من الخواطر التى تدور بذهنه فى شأنها ، ويبثها بعض أحلامه وأمانيه

وأشواقه ، ولكنه كان دائما يمزق ما يكتبه اليهـا ولا يجسر على ايداعه صندوق البريد الجوى !

***

وأخذ موعد عطلة عيد الفصح يقترب رويدا رويدا ، ومعنى ذلك عودة ثريا الى رام الله • ومعناه فى الوقت نفسه عودة وليد أيضـــا ! ووليد مصر على أن الوقت غير مناسب على الاطلاق لانشـــاء علاقة حب ، ووجود ثريا فى حد ذاته أمام ناظرى أنطون برهان من أقوى ما يمكن على لزوم تلك العلاقة !

وشعر أنطون بحاجته القصوى للافضاء بحيرته الى انسان ما ، بيد أنه ألفى من المستحيل عليه أن يناقش عاطفته نحو ثريا مع صديقه المكفوف أمين ، وليس له صـــديق سواه للأسف يسعه أن يفتح له قلبه فى هذه الفترة •• **وفجأة ، ذات صباح مشرق من شهر أبريل ، رأى ثريا فى مدينـــة القدس ، تدس رأسها داخل نافذة السيارة التى جلس هو فيها ، فى المقعـــد المجاور للسائق ، ينتظر أوبة الآنسة ريس من مكتب البريد ، وعلى محياها ابتسامتها المشرقة !**

ووثب أنطون من الســـيارة وراح يسألهـــا بعد عبارات الترحيب الأولى عما أتى بها الى القدس قبل بداية عطلة الفصح ، ومتى كان وصولها من بيروت • فأجابته أن عطلات كلية الطب تختلف من سنة الى أخرى ، وانها حضرت من بيروت منذ ثلاثة أيام • فقال لها فى شىء من الاستياء :

ـ لك هنا ثلاثة أيام ولم نتقابل لولا هذه المصـــادفة التى جاءت على غير انتظار ؟

وكم كانت دهشـــته حين قالت له انهـــا فكرت كثيرا فى الذهاب الى بيت لحم لزيارته ، ولكنها لم تستطع تدبير ذلك بسهولة ، وانهـــا ذهبت مرتين الى بيت آل داود على أمل أن

تراه هناك ، ولكنهم قالوا لها أنه لم يعد يزورهم منذ التحق بالعمل • فقال أنطون : « ان وقت فراغى قليل • وليس هناك ما يدعونى للتوجه الى بيت فيه بنات عمتى الحمقاوات • ولكن ماذا سنصنع الآن وقد أوشكت عطلتك على الانتهاء ؟ »

— أمامنا فى الصيف عطلة تمتد ثلاثة أشهر ، وسيكون من السهل علينا فى تلك الفترة أن نلتقى •

— لم تزل بيننا وبين الصيف فترة طويلة جدا •

— ليست طويلة الى هذا الحد •

— فى نظرى أنا على الأقل !

— فى وسعنا أن نقصرها بتبادل الرسائل !

وعندئذ أقبلت الآنسه ريس من مكتب البريد ، فقام بتقديم ثريا اليها • وكانت الآنسة ريس تعرف والدها الدكتور سابا • ولم تلبث ثريا أن استأذنت فى الانصراف ، ثم حرصت على استبقاء يد أنطون فى يدها وهى تودعه ، وقالت له باسمة :

— هذا وعد اذن ؟ ستكتب الى واكتب اليك !

— كم كنت متلهفا على هذا الوعد •

وتلاقت عيناهما فى نظرة طويلة ، ثم انصرفت • وفى الطريق الى بيت لحم سألته الآنسة ريس : « أهى فتاتك ؟ »

— أظن هذا • ولكن الفرصة لم تسنح لنا قط للالتقاء على انفراد • ولم أقابلها من قبل الا فى حفلات عيد الميلاد بأريحا ، وكانت شرذمة كبيرة من أعضاء الأسرة تحيط بنا على الدوام ! **ولست أدرى كيف يتسنى للشباب هنا أن يتعارفوا معرفة كافية لعقد الخطبة ، ودعى عنك عقد الزواج !**

— فى مثل هذه الظروف التقى أبواك ، وتسنى لهما أن يتدبرا أمرهما جيدا !

— لا وجه للمقارنة ، فقد كان أبى صديقا لوالد أمى •

— وهل فى نيتك أن تتزوج هذه الفتاة ؟

– ان تفكيرى لم يصل الى هذا المدى بعد . وكل مرادى أن أجد فرصة للانفراد بها أحيانا كى يعرف كل منا صاحبه ! ولو كنا فى انجلترا لوسعنى أن أخرج معها للنزهة علانية وأن أصحبها الى السينما وأزورها فى بيتها وأدعوها لزيارتى فى بيتى ..

– وشىء من هذا يحدث الآن هنا بالفعل بين الشباب المتعلم على الطريقة الأوربية . ولكنك عجول أيها الشاب ! ثم أنت كسول أيضا ولا تبذل جهدا كافيا ، **فالسعادة كالطائر لا بد أن تستدرجه الى شباكك والا فلا صيد ! والفتيات فى هذا البلد لا يسقطن من السماء على الرجال كما تسقط الثمرة عند تمام نضجها على الجالسين فى ظلال الأشجار . بل لا بد من جنى تلك الثمار بعناية وحذر في أوانها المناسب . ومتى تم جنيهن ، قر قرارهن فى السلال** . وهى مزية لا يمكن أن تقال بصدق عن كثيرات من فتياتك الانجليزيات !

واستسلم أنطون للصمت والتفكير ، ثم سألها فجأة :

« خبرينى يا آنسة ريس : ماذا تفعلين لو أن لديك رغبتين متعارضتين تماما ، وكل منهما عزيزة عليك ؟ الى أيهما تسعين ؟ »

– أهذه هى مشكلتك ؟ أهذا التعارض هو الذى يقعدك عن السعى للحصول على فتاتك ؟ هل هناك عاطفة أخرى تتنازعك ؟

– تقريبا .

– فى هذه الحالة اما أن تقعد مكتوف اليدين هكذا ، فتفقد الاثنتين معا ، أو تلتزم الحزم مع نفسك وتقرر بصفة قاطعة أيهما ألزم لك ، ثم تجمع همتك للفوز بها !

* * *

أما وليد فلم يقابله أنطون فى عطلة عيد الفصح الا مرة واحدة ، وباتفاق سابق على اللقاء فى رام الله ، اذ اتصل بأنطون تليفونيا فى المعهد يوم وصوله ، والتقيا فى اليوم التالى . وعند وصول أنطون الى رام الله — معولا على قضاء نصف اليوم كله فى صحبة وليد — اتضح له أن وليدا لا يستطيع أن يمنحه من وقته سوى ساعة واحدة ! فقد اتفق مع شخص ما على أن يقله فى سيارته بعد ساعة الى الخليل ، حيث يبيت ليلته ، ويرحل فى الغداة بالسيارة العامة لزيارة عمه منير فى (الظهيريه) التى سيقضى بها بقية الأسبوع . ولذا سوف لا يتسع وقته هذه المرة للقاء « طالب حمادى » ، ولكن هذا اللقاء غير ضرورى ، فسوف يجتمع شمل ثلاثتهم فى الصيف ليرسموا تفاصيل خطة التسلل الى بئر سبع بأتم عناية .

أما فى هذه المرة فهو ذاهب الى الظهيرية كجزء من خطته البعيدة المدى التى شرع فى تنفيذها منذ سنوات ، وهى التعرف بأهالى المنطقة ، والارتباط بأواصر الألفة مع أفراد الحرس الأردنى الذى يراقب الحدود هناك ، توطئة للمستقبل ، لأنه قدر فى ذهنه أن الخطر من جانبهم سيكون أشد من خطر الحراس الاسرائيليين ، لشدة حرص الأردن على ايقاف التسلل لما يسببه من اضطراب ومتاعب . وكان تعليق وليد على هذا : « **انهم على صواب من وجهة نظرهم بطبيعة الحال ، ولكننا نحن أيضا على صواب من وجهة نظرنا ، لأن من حقنا كلاجئين أن نعود الى وطننا وديارنا ... انه حق طبيعى ومقدس .** »

وكان لقاء أنطون ووليد فى مقهى صغير فى وسط البلدة ، ثم خرجا للسير معا تحت ظلال الأشجار وهما يتجاذبان الحديث . وسأل وليد صاحبه : « كيف حالك الآن مع طالب ؟ »

— لا علاقة لى به تقريبا . فهو لا يكلمنى الا للضرورة

القصوى . وما أقل فرص تلك الضرورة فى الواقع . ولاأدرى سبب شعوره العدائى نحوى ، أهى الغيرة ؟

– انه لايثق بالجانب الانجليزى فى تكوينك . ولم يكن ينبغى لى فى الواقع أن أصارحه بأن والدتك انجليزية .

– ولكن أباها يشعر نحو فلسطين بشعور العرب أنفسهم .

– من غير الممكن أن تحمل طالبا على تصديق ذلك !

– كم أتمنى لو أنه لم يشترك معنا فى مشروعنا .

– ولكننا بحاجة اليه . فهو دليلنا . وبمرور الزمن سيثق بك متى وجدك جادا فى حماستك للفكرة . أخبره على كل حال أنك قابلتنى واننى ذاهب الى الخليل والظهيرية .

وافترقا بعد ذلك ، وقد خامر أنطونا احساس – لايدرى مبعثه – بالضيق ، وكأن شبكة توشك أن تطبق عليه فلا تفلته . ان الصفاء بينه وبين صديقه لم يعد خالصا كذى قبل !

- ٥ -

وطوال ذلك الربيع كان أنطون يحدث نفسه بأن الصيف آت لاريب فيه ٠ وأن وليدا وثريا سيغادران بيروت فى منتصف يونية عائدين الى رام الله ٠ وكانت ثريا قد كتبت اليه رسالة واحدة ، الا أنها كانت كافية جدا ، فقد أودعتها كل ما يمكن أن يقال ، وختمتها بقولها : « **احتفظ بى فى قلبك ياعزيزى أنطون مثلما أحتفظ بك فى قلبى !** » ٠٠ ووقعت رسالتها بتلك الكلمة الجريئة : « **حبيبتك ثريا** ٠ »

٠٠ وفى وسعه الآن أن يعيش مطمئن النفس الى أن كل شىء على ما يرام ٠ وأن قلقه الذى شاب أحلامه وأمانيه العاطفية لم يعد له محل فى حياته ٠ فقد أوشك الحلم أن يكون واقعا محسوسا ٠ **وقد عول عند قدومها فى منتصف يونية على أن يصحبها لزيارة بيت أسرتها ٠ وأن يطلب الى أبيها والى والدتها أن يباركا خطبتهما رسميا** ٠ ولئن كانت ثمة صعاب تكتنف سبيلهما ، فهى صعاب ما أهونها أمام العزم الذى استقر من الجانبين ٠ وكل ما يصبو اليه الآن أن يحل اليوم الذى تتأكد فيه هذه السطور المقروءة بلمسة اليد ولمسة الشفاه !

وذات يوم ، تكررت مفاجأة اللقاء فى القدس فى شهر أبريل ، ولكن بصورة أخرى ، عندما رآها ذات يوم تجتاز فناء المعهد وفى صحبتها رجل لم تزل به آثار الشباب ، نحيف القامة ، يشبهها شبها شديدا ، فأدرك على الفور أنه أبوها ٠ وكان أنطون يلقى درسا فى الهواء الطلق تحت شجرة ، عندما رأى الزائرين يقتربان ، فاشتد وجيب قلبه ، وصرف

التلاميذ ·· ثم تقدم للقاء ثريا والدكتور سابا · وكانت ثريا ترتدى ثوبا أبيض وحذاء أبيض اللون عالى الكعب ، وتبدو فى أوج جمالها · وصاحت به بعد أن قامت بتقديمه الى أبيها :

ـ لابد أن تعود معنا لتناول الغداء ، لأنى أريد أن أقدمك الى والدتى وسائر أفراد الأسرة ·

ـ لست أدرى هل هذا فى المستطاع أم لا ، لأن لدى درسًا سألقيه فى الثالثة بعد الظهر ·

وعندئذ قال الدكتور سابا ان العميد صديقه ، وانه سيرجوه أن يمنح التلاميذ عطلة بعد ظهر ذلك اليوم · وبعد قليل كانت سيارة الدكتور سابا تقلهم ، وقد جلس الدكتور الى جوار السائق ، وجلست ثريا مع أنطون فى المقعد الخلفى ، وقد تشابكت يداهما خلسة · وقال لها هامسا : « **يجب أن نطلب اليهم اليوم الموافقة على اعلان خطبتنا** · » ·· **فاحمر وجه ثريا وهزت رأسها ، وضغطت على أصابعه ضغطا شديدا ·**

وخيل الى أنطون أنه لن يشعر ما عاش بمثل السعادة التى غمرته فى هذه اللحظة !

أما انطباعاته بعد ذلك فلا تتجاوز احساساته العابرة ببيت أنيق يتوسط حديقة واسعة الأرجاء ، فوق ربوة تشرف على واد عريض · وفى ذلك البيت وجوه باسمة مشرقة ، لأسماء سمعها ولكنه لايعتقد أن ذاكرته وعت شيئا منها · ولفت نظره منها على الخصوص ، وجه امرأة خيل اليه لأول وهلة أنها شقيقة ثريا الكبرى ، ثم اتضح أنها والدتها ، وقد رحبت به أحر ترحيب ، وأكدت له أن بيتهم بيته منذ الآن ·

وتلت ذلك مأدبة غداء احتفالية خيل اليه أن الطعام فيها

كان أكداسا مكدسة . وبعد الغداء انتهزت ثريا أول فرصة مناسبة وتعللت برغبتها فى الطواف به بين أحواض الزهور وأشجار الفاكهة فى الحديقة ، كى تنفرد به هنـــاك ، حيث قالت له :

ـ لقد قلت لأبى اننا راغبان فى اعلان الخطبة ، فقـال انه لايمانع فى ذلك اذا كانت أسرتك لاترى مانعا من اعلانهـــا ، الا أنه لايريد أن يتم هذا الاعلان الا قبيل عودتى الى بيروت ، وعندئذ يقيم لنا حفلا كبيرا ، يدعو اليه جميع الأقارب والأصهار والأصـــدقاء ، ويحضره كذلك آل منصـــــور وآل داود ، وياحبذا لو استطاعت والدتك القدوم أيضا .

ـ يالها من فكرة بديعة . وان كنت لا أدرى بالضبط هل سيكون فى مقدورها أن تحضر فى ذلك الحين أم لا .

وألفيا نفسيهما تحت عريشة من نبات الجهنمية تواريهما عن أنظار من فى البيت ، فوقف والتفت اليها بنظرة رجاء . **ثم احتواها بين ذراعيه وأطبق بفمه على شفتيها ، ولكن شفتيها لم تنفرجا تحت قبلته على نحو ما كانت تفعل روزا . وعندما أفلتها من بين ذراعيه تنهدت وقالت بأنفاس متقطعة :**

ـ هيا بنا نعود اليهم قبل أن يفتقدونا .

ـ ولكنى أريد أن أعرف منك هل تحبيننى ؟.. هل ؟

ـ طبعا . طبعا . أنت تعرف هذا . وقد كتبته اليك !

فأطلق ضحكة سعادة صافية وتأبط ذراعها عائدين .

* * *

هذا كله لم يكاشف به أنطون صديقه وليد الذى زاره بعد بضعة أيام وهو فى طريقه الى الخليل • وتحت ظلال شجرة تين عتيقة فى طرف الضيعة الأقصى ، جلس « طالب » معهما ، وراجع الثلاثة خطة العمل •• فقال لهما وليد انه سوف لايعود الى رام الله قبل تنفيذ المشروع • وأن عملية بئر سبع سيبدأ تنفيذها فى اليوم التالى لوصول طالب وأنطون الى الظهيرية ، حيث سينتظرهما • والمراسلات قبل ذلك ممنوعة !

وكان من المقرر أن يحصل طالب على أجازة مدتها أسبوع فى شهر سبتمبر ، على أن يختار أسبوعا لا يكون القمر فيه بدرا • وأخرج وليد من جيبه مفكرة ، وبدأ الثلاثة يتناقشون فى التاريخ •

وانتهز أنطون هذه الفرصة وراح يتأمل وجهى زميليه الجادين ، وشعر على الفور باختلافهما عنه • وان علة ذلك الاختلاف كامنة فيه هو وفى ظروفه • فهذه العملية التى ظل يحلم بها طيلة أربع سنوات ، لم تعد بالنسبة له الآن فى المقام الأول من الأهمية • لم يعد حريصا على الانطلاق نحو الظهيرية كما كان يتمنى منذ بضعة شهور • **فكل أمانيه اليوم محصورة فى البقاء قرب ثريا • وما من شىء بعد ذلك يعنيه • وكأنما عودته من أرض المنفى لم تكن الا من أجلها • أما طريق بئر سبع فبدأت تتخلى عن مكانتها كى تحتلها طريق أخرى ، هى الطريق الى ثريا !**

وفى الوقت الذى انصرف فيه صاحباه الى مناقشة أنسب موعد ، كان هو يسترجع بضاضة شفتى ثريا المطبقتين ، وزفرتها الصغيرة بعد ذلك ، وقد تحولت من طالبة طب واثقة بنفسها ، الى فتاة عاشقة مرتجفة الأوصال بين يديه !

وقطع عليه صوت وليد الجاد حبل تأملاته الحالمة : « أليس هذا رأيك أيضا يا أنطون ؟ » .. فأسرع يقول له : « هو ما تقول . ويخيل الى أنه سيكون فى وسعى أن أحصل على عطلة فى نفس الوقت الذى يحصل فيه طالب على عطلته ، لأننا لا نعمل فى قسم واحد من أقسام المعهد ، بل فى قسمين مختلفين . »

فتجهم وجه وليد وقال : « ليس حديثنا الآن عن التواريخ . فقد فرغنا من هذا . وانما كنت أقول انك ينبغى أن ترحل من الخليل الى الظهيرية بمفردك ، وأن يسافر طالب اليها مع أقاربه الذين سيحضرون الى الخليل لاصطحابه . »

– بمفردى تماما ؟

– ليس تماما . بل سأرسل عمى منير لاصطحابك . وانما الغرض من هذا ألا تسافرا معا أنت وطالب .

– يؤسفنى أنى لم أكن مركزا ذهنى فى الحديث . ولكنى موافق طبعا على هذا الرأى .

فقال طالب عندئذ بلهجة باترة : « لعلك – فى اليوم الموعود – أن تركز ذهنك ، لأنك ستكون بحاجة الى تركيزه ، مع كل خطوة تخطوها عند التسلل !

٣٠١٢

- ٦ -

ومن لندن كتبت ماريان :

« **عزيزى أنطون**

« أسـعدنى أن أعلم أن الأمور جرت على نحو ما تمنيت ، بشأن ما بينك وبين ثريا . وكذلك سعد جداك بهذه الأنباء ، **وليس هناك ما يمنع مطلقا من اعلان خطبتكما رسميا ، مادامت هذه رغبتك ورغبة آل سـابا . أما عن اقتراحك أن أحضر بالطائرة لشهود ذلك الحفـل فى أوائل أكتوبر فهو اقتراح قريب الى نفسى جدا** ، وستكون مناسبة طيبة للاجتماع بسائر أقاربى الفلسطينيين مرة أخرى فى رام الله . والحقيقة أنه من الجائز أن أحضر الى عمان فى نهاية سبتمبر ، لأعمال تتعلق بالصحيفة ، ولم أشأ أن أذكر لك ذلك من قبل لأننى لم أكن متأكدة من التاريخ . وسأبرق اليك بموعد وصولى على أمل أن تتمكن من استقبالى فى المطار ، أنت « وكنتى » المستقبلة ثريا . جدتك وجدك يضمان صوتهما الى فى اهداء التهانىء اليكما معا . »

وفرح أنطون فرحا عظيما بهذا الخطاب . واطلع عليه ثريا ووالديها . وشاركه فى الفرح سـائر أقاربه فى رام الله ، والآنسة ريس وأمين ، وكل من يعرفهم .. **فيما عدا وليد الذى لن يجرؤ على اخباره بموعد الخطبة الا بعد الانتهاء من عملية بئر سبع !**

وعلى كل حال لم يعد الاجتماع بثريا مشكلة عويصة . فقد دبر الأمر مع مستر شابلى بمساندة الآنسة ريس كى يخليه

من العمل يوم الأحـــد من كل أسبوع ، فيركب دراجته الى رام الله ويرى ثريا ، أما فى بيتهـــا أو فى بيت آل داود ·

ولم يكن انفرادهما أمرا كثير الوقوع فى تلك الزيارات · ولكن الفتاة لم تكن تتوقع ذلك ، وأنطون كان يعلم أن الأردن ليست كبريطانيا ، وأن ثريا ليست كروزا ، وهو لا يتمنى الآن شيئا أكثر من جوارها ، ويجد فى ذلك سعادة لا يعذبه فيها الشعور بالحرمان ·

وصار يجد عناء شــديدا فى ارغام ذهنه على التفكير فى وليد ، فاذا نجح فى ذلك تولاه احســـاس بالاثم لأنه خان ما عاهده عليه !·· ولكن الأمر خرج من يده ، لأن ثريا صارت جزءا لا يتجزأ من حياته · وكل شيء عداها هو وهم لا يستطيع أن يقنع نفسه بواقعيته ·

واستمر الحال على هذا المنوال الى أن انقضى شهر يولية · وفى أغسطس بدأ يشفق من اقتراب الموعد المضروب بينه وبين وليد ، وأحس كأن شبكة تكاد تطبق بأطرافها عليه · ولكن الوقت أخـــذ يمضى ، ويدنو بمضيه شهر سبتمبر ، ويزداد بهذا الدنو قلقه ، حتى أنه لم يجد محيصا فى النهـــاية عن مناقشة الموضوع من حيث عموميـــاته مع ثريا ، من غير أن يتورط فى افشاء السر الخاص بصاحبيه !

وذات يوم ، فيما هو جالس معها فى حديقة بيت والديها ، سألها عن رأيها فى التسلل عموما : « ولنا الحق كما تعلمين فى العودة الى ديارنا · وهو حق طبيعى ومقدس · ولئن كانت الدول الكبرى — وهيئة الأمم المتحدة — تأبى أن تساعدنا فى الحصول على ذلك الحق ، فما عذرنا أمام أنفسنا فى الامتناع عن محاولة تحقيق ذلك بأنفسنا ؟ »

— ان المسألة تنحصر فى امكان هذا العمل أو عدم امكانه · فاذا كان التسلل ممكنا ، فجدواه مشكوك فيها ·

– ولكن مارأيك اذا كان التسلل توطئة لانشاء حركة مقاومة سرية داخل الأرض المحتلة ؟

– كنت أفهم هذا لو أن الفلسطينيين كانوا أغلبية أو شبه أغلبية ، فى الأرض المحتلة .. أو حتى لو كانوا أقلية كبيرة . أما وهم لا يتجاوزون السبعين ألفا ، فالعملية غير متكافئة وغير منطقية !

فنظر اليها أنطون بأسى شديد وقال : « لو كنت وأهلك من اللاجئين لما قلت هذا الكلام ! » .. فوضعت راحة يدها على ظاهر يده وقالت : « **أرجو أن تصدقنى حين أقول لك اننى لو كنت لاجئة لكان رأيى فى الأعمال العنيفة غير المنظمة ، وغير المثمرة ، هو عين رأيى الآن !** »

– ماأشبه هذا الكلام بكلام من يسمون أنفسهم – أو يسميهم الانجليز – بالعقلاء ، أو من يقبلون الأمر الواقع ويستسلمون للهزيمة ! لقد خسرنا الجولة الأولى فى هذه الحرب مع اليهود بسبب التقصير والخيانة ، وما لم نفعل شيئا ، سنظل خاسرين الى النهاية !

– ليس الى النهاية . فعامل الزمن فى جانبنا !

– كثيرا ما قيل لى هذا من قبل . ولكنى لا أستطيع الصبر مائة سنه . بل لابد لنا من العمل العاجل . وان كنت قد تعتقدين أن ما أقوله تعبير عما يسمونه « عقلية اللاجئين . »

– لا أكتمك أن هذا رأيى فعلا .

وعندئذ خيل اليه أن استمرار المناقشة غير مجد ، وتمنى فجأة لو أن وليدا بجواره كى يرفع من روحه المعنوية ويقوى من ايمانه . فقد فل من عزيمته كثيرا أن يجد ثريا معارضة لرأيه ، مثلها فى ذلك مثل أمه وجده وصديقه أمين .. وخيل اليه أن مستر شابلى يمكن أن ينير له الطريق ، فانتهز فرصة انفراده به بعد أيام – وهما فى طريقهما الى احدى القرى

سيرا على الأقدام ، لزيارة أسرة لديهـا ابن مكفوف يزعج بسخطه وتذمره ونوبات هياجه كل من حوله – فألقى عليـه فجأة سؤاله :

– مارأيك فى التسلل ؟

– وسيلة خرقاء . ولاسيما من الناحية الأخلاقية .

– ألا تعتقد أن من حقنا نحن اللاجئين أن نعود الى ديارنا ، ما وجدنا الى ذلك سبيلا ؟

– بلى ! هذا أمر لامراء فيه ، ولكن السبيل الى هـذا ليس التسلل الفردى ، لأنه يحرج الدولة التى تستضيف اللاجئين . وليس من حقك أن تشكو من عدوان خصمك ان أنت سلكت سبيل العدوان !

– وهل من العدوان أن يحاول المرء العودة الى داره ؟

– نعم . اذا كانت الوسيلة منافية للقانون والنظام !

– وما العمل اذن ؟

– وجهة نظرى فى هذا هى وجهـة نظر المهاتما غاندى . فالوسيلة المناسبة هنا هى العمل الجماعى السلمى المناهض للعدوان والعنف . **هل تذكر الزحف الكبير نحو الملح فى الهند ؟ انك بالطبـع لا تذكره لأنك لم تكن قد ولدت بعد . ان الحكومة الانجليزية فى الهند كانت تحتكر الملح ، وتفرض عليه ضرائب باهظة ، فقرر المهاتما غاندى أن يدعو الشعب الى الامتناع عن أداء تلك الضريبة ، باعتبار ذلك الامتناع جزءا من معركة العصيان المدنى** . وتزعم المهاتمـا غاندى ألوفا من مواطنيه زحفوا الى شاطىء البحر ، حيث استخلص بيـده حفنة من الملح – وهو عمل لا يعدو فى قيمته أن يكون رمزا ! – وعلى هذه الصورة أتمثل معسكر اللاجئين الكبير فى الأردن ، أو سائر المعسكرات الموجودة فى هذه البلاد ، وقد غادرهـا سكانها جميعا وتدفقوا فى مسيرة كبرى قوامها **جيش عرم من**

الجياع المهلهلى الثياب ، زاحفين وهم عزل من السلاح نحو الحدود التى فرضت عليهم عسفا ٠٠ رجالا ونساء وأطفالا ، وجهتهم ديارهم المسلوبة ٠٠ وقد لا يتمكنون من تجاوز الحدود ، أو قد يصلون الى الشقة الحرام ٠ ولكنهم سيهزون ضمير العالم !

ـ ولكن مدافع اليهود الرشاشة ستحصدهم من أوكارها فوق قمم التلال ، ومن الطائرات !!

ـ وهل يعقل أن يحصدوا ألوفا من العزل من السلاح فى مثل ذلك الموكب الرهيب ؟

فصرخ أنطون : « **انهم لا يتورعون عن ذلك ٠ ولن يعدو الأمر فى نظرهم أن يكون مذبحة أخرى من سلسلة مذابحهم !** »

وهكذا انتهى ذلك الجدل أيضا الى الاخفاق ، ولم يجد أنطون من يسانده فى موقفه ٠

- ٧ -

وفى أواخر سبتمبر ، قبل الموعد المتفق عليه ببضعة أيام ، قال أنطون لثريا انه قد أزمع الذهاب لقضاء بضعة أيام مع وليد وعائلته فى الخليل ، وقد تستغرق هذه الزيارة أسبوعا على الأكثر • ووقع منها هذا النبأ موقعا غير حسن ، لأن عطلة الصيف قد آذنت بالانتهاء ، وعندئذ ستعود الى بيروت ، فلا يتسنى لها أن تراه الا فى عطلة عيد الميلاد •• وقالت له : « لا ينبغى لك أن تطيل الغياب ، فلابد لنا من اعداد العدة لحفلتنا كما تعلم • »

وكانا جالسين فى ركن منعزل من حديقة آل سابا ، فطوق كتفيها بذراعه ، فحولت وجهها اليه •• فطبع على شفتيها قبلة ناعمة ، ثم قال : « ما أسعدنى ! كم وددت لو لم يكن لزاما على أن أذهب الى الخليل ! فلا أمنية لى سوى قضاء كل دقيقة من المدة الباقية معك ! »

– لماذا اذن تذهب الى الخليل ؟ ما الذى يلزمك بذلك ؟

– لقد وعدت وليدا !

– وهل أمره يعنيك الى هذه الدرجة ؟

– انه صديقى الكبير • بل صديقى الأوحد • كنا تلميذين فى المدرسه معا ، وظللنا على اتصال مستمر طيلة غربتى فى انجلترا •

– كل هذا مفهوم • ولكنه لم يعد الآن صديقك الأوحد • فأنا الآن فى حياتك •

فأجابها باصرار : « **أنت حبيبتى ، أما هو فصديقى • والأمران مختلفان • فحبى لك لا يغير من شعورى نحو وليد •**

وأنا فى الواقع لا أريد أن أقتطع من وقتى معك بالذهاب الى الخليل ، ولكنى كنت قد وعدته بذلك منذ زمن طويل جدا ، ولابد لى من الوفاء بوعدى ! »

.. فتنهدت ، ثم قالت : « كما تشـــاء . ولكن لا تطل الغياب . »

ـ سأعود فى الوقت المناسب لاقامة الحفل .

ـ ان شاء الله .

ـ أجل ، ان شاء الله

* * *

وسافر أنطون وطالب معا بالسيارة العامة من بيت لحم الى الخليل . ووقفت الآنسة « ريس » تودعهما ملوحة بيدهـا أمام مبنى المعهد الرئيسى . أما أمين فقال لأنطون وقد وضع يده على ذراعه : « عد الينا سريعـا ، فانى سأفتقد أحاديثك وسمرك فى الليل .. مع السلامة . »

وفى الطريق ، لم يسأل « طالب » أنطونا الا سؤالا واحـدا بخصوص الحصول على الترخيص . وفيما عدا ذلك لم يوجه اليه كلمة واحدة ! .. وكانت السيارة العـامة تمر ـ فى طريقها ـ بين بساتين التفاح ، والحقول المزروعة ، ومعسكرات اللاجئين ، وطالب يطل على ذلك كله من النافذة بوجه صارم مقطب ، **وفى ذهنه أنه لولا عملية بئر سبع هذه ، لكان بوسعه أن يقضى أسبوع العطلة فى معسكر اللاجئين مع زوجتـــه . أما الآن فلن يسعه أن يقضى معها ، من هذا الأسبوع كله ، يوما واحدا ولا ليلة واحدة** . ولم يكن قد أنبأها بأمر الأجازة التى حصل عليها ، أو ما اعتزم أن يصنعه فيها ، ولكنه قد يخبرها بعد عودته ويروى لها أنباء مسقط رأسهما (بئر سبع) .

وكان وليد فى استقبال السيارة العـامة فى الخليل ، متهلل الوجه منشرح الصدر . فقد تم اعداد العدة لاستخراج

الترخيصات ، وما عليهم الا أن يذهبوا الى بلدية المدينة لتسلمها ٠

وقال وليد لأنطون ان عمه منير في المدينة ، وسيصحبهما فى طريق العودة ٠ أما طالب فيتوقع وصول أقاربه من الظهيرية فى السيارة العامة التى تصل بعد ظهر ذلك اليوم ٠

وقال طالب حمادى لوليد : « **ومتى سننطلق الى هناك ؟** » ، **فأجاب وليد : « الليلة ٠ فليس هناك مايدعو للتسكع هنا » ٠**

وعندئذ سأله أنطون وهو يحاول أن يجعل لهجته طبيعية : « كم من الوقت يلزمنا فى اعتقادك للوصول الى هناك ؟ » ، فقال وليد : « ان المسافة تبلغ نحو اثنى عشر كيلو مترا بالطريق الممهدة ٠ ولكن لا بد لنا من تجنب تلك الطريق ٠ وسيكون السير فى هذه الحالة شاقا جدا وتحت جنح الظلام ٠ »

وقال طالب : « ربما استطعنا أن نقطع المسافة فى ثلاث ساعات ٠ فقد رتبت كل شىء فى ذهنى ، على أن نتجنب المرور بالقرى والكفور ٠ »

وكانوا يتكلمون وهم فى طريقهم الى البلدية ، والتجهم باد على وجه طالب كالعادة ٠ أما وليد فكان على سجيته ، الا أنه كان جادا ٠ وأما أنطون فكان يشعر بهبوط فى قواه وروحه المعنوية ، حتى لقد عجز عن اصطناع تلك الابتسامة التى كان يجيدها ٠ وقبل أن يصلوا الى البلدية ، لحق بهم العم منير ، فرحب بأنطون ترحيبا حارا ، وقال لطالب : « بيتى هو بيتك ٠ يا مرحبا ٠ »

وصحبهم الى البلدية حيث كان له صديق من موظفيها ، فاستطاع الحصول على الترخيصات على الفور ، من غير أن يتجشموا الانتظار مع عشرات المنتظرين ٠ ثم قال وليد لأنطون : « **سوف لا نذهب فى هذه المرة الى الحانوت ، لأننى**

لا أريد أن يعلم أقاربى بذهابنا الى الظهيرية • ولكننا سنزورهم عند عودتنا ، وان كانت هـــذه الزيارة ستتم ونحن متفرقين ، لأننى قد أبقى فى بئر سبع مدة شهر » •

ثم توجهوا الى مطعم شعبى فى شارع خلفى بالمدينـــة ، وهناك شعر أنطون بحالته النفسية تزداد سوءا ، فلم يستطع أن يمس الطعام • ونظر اليه طالب بخبث وقال : « كأنى بك خائف ؟ » ، وقال وليد : « كثيرا ما تتوتر الأعصاب عنـــد اقتراب ساعة الصفر » ،فقال أنطون : « ليس توتر أعصابى بسبب خوفى من عملية التسلل ذاتها – فما أكثر من يقومون بها – ولكنى فى الحقيقة لم أعد مؤمنا بجدوى هذه العملية » •

ونظر اليه وليد نظرة صارمة ، أما طالب فضحك ضحكة استهزاء • ثم قال وليد بصوت باتر : « يبدو أنك لم تعـــد تصلح للايمان الا بفتاة تدعى ثريا سابا ! انك لم تعد تؤمن بعمليه بئر سبع ، ولا بالتسلل • لأن هذه الأفكار كلها ، لم تعد مناسبة لك ! » • ثم دفع وليد صحفته من غير أن يتم طعامه ، فى حركة تدل على منتهى الاشمئزاز والتقزز ، ورفع نظره الى أنطون وقال : « هناك سيارة عامة تقوم الى بيت لحم بعد الظهر • ومن الخير أن تستقلها • بل لعل أفضل من هذا وذاك أن تعود الى انجلترا حيث تنتمى ، وأن تقلع منذ الآن عن ادعاء انتمائك الى العروبة التى كان أبوك من أبطالها • فأنت انجليزى كأمك ! انجليزى حتى النخاع ! »

ونهض أنطون عن المائدة ، وقد شحب وجهه شحـــوبا شديدا حتى حاكى الثلج فى بياضه ، وقال : « سأنصرف ، لأنه لم يعد ثمة مبرر لبقائى » ••• فقـــال وليـــد بمرارة : « اطلاقا • »

وأطلق طالب ضحكة ساخرة ، وأولاهما أنطون ظهـره ، ولم يلبث أن اختفى •

- ٨ -

وبعد ظهر ذلك اليوم ، وصلت الى حانوت أقارب وليد بالخليل ، برقية باسم أنطون بطرس منصور محولة من بيت لحم • وكانت هذه البرقية بعينها قد وصلت الى المعهد فى الصباح بعد رحيل أنطون وطالب • فلم يسع مستر شابلى - بعد استشارة الآنسة ريس ، والرجوع الى أمين - الا أن يحول البرقية الى عنوان أقارب وليد ، لأن المفروض أن أنطون سينزل ضيفا عليهم هناك طيلة ذلك الأسبوع •

وكانت البرقية من أمه ، ونصها : « أصل (عمان) فى منتصف السادسة صباح غد بتوقيت الأردن • »

وكان المفروض طبعا أن تصل البرقية الى أنطون فى اليوم نفسه ، كى يغادر الخليل الى عمان فى الحال لاستقبال أمه •

ولما كان الشبان الثلاثة قد تحاشوا المرور بالحانوت - فى الخليل - فقد تحير أقارب وليد فى معنى تحويل هذه البرقية اليهم • وأخيرا قرروا الاحتفاظ بها الى أن يسأل عنها صاحبها !

وفى هذه الأثناء ، كان الصراع ناشبا فى سريرة أنطون : بين ايثار السلامة ، وبين المضى فى الكفاح الوطنى كما اتفق عليه مع صديقه وليد ! •• **ولم يدم ذلك الصراع طويلا ، لأن حمية الشباب ، ونخوة القومية ، أشعرتاه بالخزى لموقفه المتخاذل ، ولم يأت الأصيل حتى كان قد غير اتجاهه وأخذ طريقه الى الظهرية - وليس الى بيت لحم - ليحاول اللحاق بصاحبيه •**

وكان منير حسين وزوجته يتأهبان للنوم ، عندما طرق

بابهما طارق ، فبادر منير الى بندقيته القائمة فى ركن من الحجرة ، وخرج سعيد من الحجرة الأخرى وفى يده بندقيته • فقد تعود أهل الظهيرية أن يطرق بابهم أفراد الحرس الوطنى للانذار بغارة من غارات اليهود على الحدود • **وقد يكون الطارقون هم المغيرون أنفسهم • أو هم أفراد الحرس الوطنى وقد ضبطوا وليدا وطالبا يحاولان التسلل فجاءوا لالقاء القبض على سكان الدار أيضا بتهمة التواطؤ ! •• وصاح منير بصوت أجش : « من هناك ؟ » •**

— أنا أنطون منصور • صديق وليد •

وعلى الفور فتح الباب • ولم يأبه أنطون بالرد على عبارات الترحيب والمجاملة ، بل صاح فى لهفة يسأل عن وليد وطالب •• فقيل له : « **لقد رحلا منذ ساعة ، ولن تستطيع اللحاق بهما الآن فى الظلام • استرح** » •

وجلس أنطون ، ثم تناول قدح اللبن الذى قدموه اليه ، وهو يقول : « انى فى غاية التعب • فقد جئت سائرا على قدمى من الخليل • والمسافة ليست طويلة ، ولكنى حرصت على الابتعاد عن الطريق حتى لا أقع فى يد الدوريات الليلية • ولابد لى الآن من اللحاق بهما • فقد تشاجرت مع وليد وافترقنا متخاصمين • ولكنى راجعت نفسى • ولابد لى الآن من الانصراف حتى لا تزداد المسافة بينى وبينهما • ألا تظن أنى سأدركهما ؟ »

— هذا يتوقف على سرعتهما فى المرحلة الأولى • وهذه المرحلة تقع فى الشقة الحرام ، وهى أصعب المراحل • ولكن طالبا يعرفها بالشبر • ووليد قضى السنوات الأخيرة فى تفقدها بين الحين والحين ، وهو يتظاهر برعى الأغنام أو العمل فى الحقول ، كلما سنحت له فرصة للحضور الى هنا • أما أنت فمن الجنون أن تجازف بالمضى وحدك لأنك لا تعرف تفاصيل الأرض فى هذه المنطقة •

– ولكن لا مناص لى من الذهاب !

– وما الذى جعلك تغير رأيك ؟

– وجدت أن احساسى العميق بقوميتى أرجح عندى وأبقى من نداء العقل ، وصوت المصلحة ، وروابط العواطف الأخرى . وأخزانى أن يصمنى طالب بأننى انجليزى . ثم لم يلبث وليد أن تبعه فى ذلك ورمانى بأننى لا أصلح الا لصحبة النساء !

– ولكنك على الأقل يجب أن تأكل شيئا قبل أن تنطلق .

ولم يسع أنطون الا أن يشرب الشاى ويأكل كعكة مما قدم اليه على خوان من النحاس – على الطريقة العربية – مع شىء من جبن الماعز والزيتون الأسود . ثم كرر عليه منير ووالده العجوز النصح بألا يجازف بالتسلل فى الليل وحده وهو يجهل كل شىء عن المنطقة . ولكن أنطونا قال : « لابد من هذا . وفى وسعكم أن تساعدونى . فانى أعلم أن طالبا رسم خريطة لهذه المنطقة غاية فى الدقة . فهل لديكم هذه الخريطة ؟ »

وجاءه منير بالخريطة . وكان أنطون قد تدرب على قراءة الخرائط العسكرية فى معسكر التدريب فى انجلترا ، وأظهر فى ذلك تفوقا ملحوظا ، فجعل يطبع فى ذاكرته جميع التفاصيل . وكى يطمئن منيرا طوى الخريطة ثم شرع يرسمها من ذاكرته . فلم يترك منها شاردة أو واردة .

وعلى باب الدار ، ودعه منير وسائر أفراد البيت قائلين :

– كان الله معك . مع السلامة .

* * *

وكانت الليلة حالكة السواد ، لا قمر فيها . وأخذ أنطون يتحرك بحذر ، والخريطة مرتسمة فى مخيلته ، وهو يحرص على ألا يحدث صوتا بمشيه فوق الحصى الكبير غير المتماسك .

وفى بعض المواضع كان يضطر للزحف . وقدر أن وليدا وطالبا لابد قد اجتازا خط التقسيم ودخلا فى البرية منذ أكثر من ساعة . ولعلهما قد اجتازا البرية أيضا ووصلا الى سفح التل . وحين يقترب منهما - زاحفا فى الظلام - قد ينتابهما الرعب ، بل قد يثبان اليه ، ولكن حسبه أن يهمس باسم وليد قائلا له : « ها أنذا قد أتيت يا وليد ! »

وهدأت نفسه عند هذه الخاطرة . وكانت الطريق تبدو متعرجة بين التلال ، منحدرة الى بئر سبع . وجلس يستريح قليلا ويلتقط أنفاسه اللاهثة ، ويصغى لسكون الليل يمزقه نباح كلب فى مكان بعيد ، عند أحد معسكرات البدو . وجاوبته بالنباح كلاب أخرى فى قرية مجاورة . ثم لم يلبث الصوت أن خبا . وأعقبته بعد قليل نغمات من ناى يعزفه شخص ما داخل كوخ مقفل .

وانتقلت خواطره الى الحراس اليهود الكامنين فى أوكارهم فوق التلال من الجانب الآخر . أتراهم يلعبون الورق الآن بين نوبات الحراسة وأوقات الداورية ؟ وهل احدى دورياتهم الآن تجتاز الوادى ؟ ان مثل هذه الداوريات هى الخطر الحقيقى ، أما الحراس فوق رؤوس التلال فلا خطر منهم فى هذا الليل البهيم . وانه ليعجب كيف استطاع وليد وطالب أن يفلتا .

ونهض وشرع يهبط الى بطن الوادى بحذر . وكانت الحصباء تنزلق تحت قدميه ، ولكن صوتها لا يسرى فى الليل طويلا . وهو مستمر فى زحفه ، مستترا بالصخور البارزة ، متنقلا بينها على يديه ورجليه . ثم يتوقف بين الحين والحين ، ويصيخ السمع .

واصطدم فى زحفه بشجرة من الشوك ، فأدمت يده وكاد يصرخ من الألم ، وانبجست الدموع من عينيه ، ثم زايله الألم عندما جمد الدم فى عروقه لسماعه نباح كلب يقترب

منه بخطوات واسعة . ثم لم يلبث النباح أن بعد ، وتبين أنه لم يكن كلبا كما يخشى ، بل ابن آوى .

كان يتقدم ببطء والمسافة قد أمست فى نظره أطول مما يتصور . وتراءت له على البعد أنوار كشافة فخفق قلبه خشية أن يسقط عليه شعاع من أنوارها من فوق احدى القمم ، وأنشأ يجرى كى يختصر المسافة ويحتمى بالجانب الآخر حيث سفح التل ، وحيث يقدر أن صاحبيه قد وصلا منذ حين . وتعثر وهو يجرى ، وسقط على وجهه ، فظل بلا حراك وقتا طويلا ، وهو يرهف السمع ، ولما اطمأن أخذ يزحف على بطنه خائفا من الوقوف على قدميه ، وجعل يشجع نفسه بجميع الخواطر الممكنة ، ويحاول أن يتذكر بقية الخريطة ، وموضع بيت شقيق طالب قرب السوق فى بئر سبع . ونظر من فوقه الى النجوم وقد أخذت تتكاثف فيما خيل اليه .

واستجمع قواه ونهض ، وأخذ يجرى بخفة .. ولكنه تعثر مرة أخرى ، فعدل عن الجرى الى السير البطىء ، الى أن وجد الأرض مستوية تحت قدميه ، خالية من الصخور التى يمكن أن يتوارى خلفها حتى قاعدة التل التى يقدر أن صاحبيه يجلسان عندها . وتمنى لو استطاع أن يقطع هذه الأرض المكشوفة منتصب القامة ، حتى يرياه على تلك الحال ، ولكنه لم يجسر . واستمر يزحف على بطنه . وفجأة تجدد النباح . واقترب الكلب منه اقترابا شديدا ، فالتقط حصاة قذفه بها . ولكن نباح الكلب اشتد ، ثم تبين عينيه فى الظلام على قيد أقدام قليلة منه . **ثم سمع لغط كلام لم يتبينه ، فلم يكن أمامه الا الفرار السريع . ووثب كالأيل الشارد ووجهته بطن الجبل ..**

ومزقت سكون الليل طلقات مدفع رشاش !

ومات أنطون قبل أن تسقط جثته الدامية على أرض الشقة الحرام .

× × ×

وبعد بضع ساعات بزغ الفجر على وليد حسين وطالب حمادى وقد دخلا بئر سبع .. وعلى طائرة ماريان وهى فى طريقها الى عمان .. وعلى ثلة من الرجال يحملون الى خط التقسيم جثة شاب فلسطينى ليسلموها الى حرس الحدود الأردنيين .

وتجمع حشد من الناس صامتين ، كأن على رؤوسهم الطير .

انه شهيد آخر – لن يكون الأخير – على الطريق الى (بئر سبع) !

تمت القصة

سلسلة «مطبوعات كتابى»

الترجمة الكاملة الأمينة لشوامخ الكتب العالمية

قدمت لقراء العربية فى أعدادها التى صدرت حتى الآن – وعددها ثلاثة وسبعون كتابا ، وكتابان من الحجم الكبير ، خارج السلسلة – الكتب التالية ، (وتستطيع أن تستكمل ما ينقص مجموعتك منها من ادارة كتابى بالقاهرة : عمارة الجندول ، ١٤ شارع ٢٦ يوليو ، شقة ١٤ – تليفون ٥٩٥٥٦ ، ٤٦٤٧٥) :

من شوامخ الأدب الانجليزى

رقم العدد	عنوان الكتاب واسم المؤلف .
١	قصة مدينتين (تشارلس ديكنز)
٢	ذات الثوب الأبيض (ويلكى كولنز)
٤	الخاطئة ، أو القناع الملون (سومرست موم)
١٥ – ١٧	جين اير ، ٣ أجزاء (شارلوت برونتى)
٢١	فرنسا الجريحة على ضفاف النيل (ديفيز)
٢٤ – ٢٦	بيللادونا ، ٣ أجزاء (روبرت هتشنز)
٣٩ ، ٤٠	المسبحة ، جزءان (فلورنس باركلى)
٤٤	أرواح هائمة (سومرست موم)
٤٥ – ٤٧	القلعة ، ٣ أجزاء (دكتور أ ج . كرونين)
٤٩ – ٥١	مرتفعات ويذرنج ، ٣ أجزاء (اميلى برونتى)
٧٢ ، ٧٣	الطريق الى بئر سبع ، جزءان (ايثيل مانين)

من شوامخ الأدب الفرنسى

٥ ، ٦	حياة امرأة ، جزءان (جى دى موباسان)
٨	أوديب (أندريه جيد)

٩ ، ١٠ مدام بوفارى ، جزءان (جوستاف فلوبير)
٢٢ الابن الضال (هنرى بوردو)
٢٨ ـ ٣٢ اعترافات جان جاك روسو ، ٥ أجزاء (روسو)
٣٤ ليالى بلزاك أو قصص ماجنة (بلزاك)
٤١ سفينة الملذات (موريس ديكوبرا)
٤٨ هل تحبين برامس (فرانسواز ساجان)
٥٢ ، ٥٣ مدموازيل جوفر (مارسيل بريفو)
٥٤ العذراء المفتونة (هنرى باتاى)
٦٣ السحب الرائعة (فرانسواز ساجان)
٦٤ ، ٦٥ الآلهة عطشى ، جزءان (أناتول فرانس)

من شوامخ الأدب الأمريكى

٣ الخالدون (ديل كارنيجى)
١٨ فاتنة الرجال (مارجورى كورين)
٢٠ الثأر للوطن أو غروب القمر (جون شتاينبيك)
٢٣ أسرار الجاسوسية (برنارد نيومان)
٥٩ لوكريشيا بورجيا (جوان هاسليت)
٦٠ «مشهد من الجسر» ، و «كلهم أبنائى» (آرثر ميللر)
٦٩ فاتنة الكونغو (تشارلس ميرسر)

من شوامخ الأدب الروسى

١٩ رجال ونساء (مكسيم جوركى)
٢٧ حياة بوشكين
٤٢ دم وخمر (تولستوى)
٥٥ ، ٥٦ مياه الربيع ، جزءان (ترجنيف)
٥٧ ضحكة فى الظلام (نابوكوف)
٥٨ ماريا ايفانوفنا ، أو ابنة الضابط (بوشكين)
٦١ ، ٦٢ نيتوتشكا ، جزءان (دستويفسكى)
٦٦ قصص من تولستوى (تولستوى)